لم يُخلق الرجال ليكونوا وحيدين

حل مقترح

مكتبة

مختارات من القصة الفرنسية الحديثة

اختيار وترجمة: وئام غداس

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

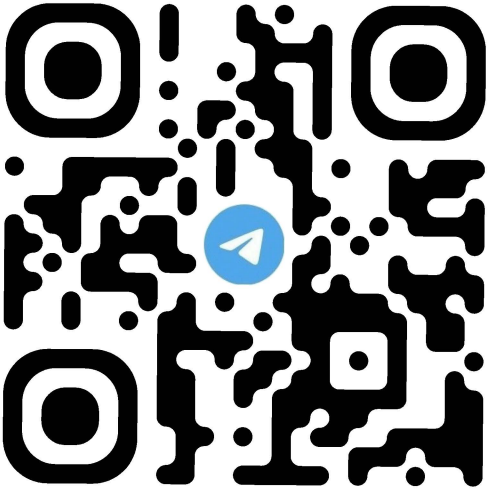

telegram @soramnqraa

لم يخلق الرجال

ليكونوا وحيدين

وقصصٌ أخرى..

الكتاب: لم يخلق الرجال ليكونوا وحيدين

المؤلف: مجموعة مؤلفين

ترجمة: وئام غداس

تصميم الغلاف: عبدالفتاح بوشندوقة

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

عدد الصفحات: 142

الترقيم الدولي: 978-1-998800-18-6

الطبعة الأولى: 2023

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حيـــــاة

البريد الإلكتروني: hayatpublishing1@gmail.com

يمكنكم طلب كتبنا من المتجر الالكتروني:

hayatbookstore.com

لم يخلق الرجال ليكونوا وحيدين

وقصصٌ أخرى..

مكتبة
t.me/soramnqraa

اختيار وترجمة

وئام غداس

تاتيانا دو روناي

صِحافيَّة وكاتبةٌ فرنسية بريطانية، مِن مواليد 1961، مولودة وتعيشُ في فرنسا، تكتبُ باللُّغتين الإنجليزية والفرنسية، صدرَ لها منذُ عامَ 1992 ما يزيدُ عن 16كتابًا، بينَ رواياتٍ ومجموعاتٍ قصصية، لعلَّ أشهرها:

- «ذاكرة الجدران» 2003/ رواية.
- «موكا» 2006/ رواية.
- «كان اسمها سارة» 2007/ رواية، (5 جوائز، وتُرجمت إلى 38 لغة).
- «بوم - رانغ» 2009/ رواية.
- «روز» 2010/ رواية.
- «مقهى لويندال» 2014/ مجموعة قصصيَّة، (5 طبعات).

تحصَّلت على عدةِ جوائز، وتُرجمَت أعمالُها في أكثرَ من أربعين دولة، كما تمَّ تحويلُ 3 من رواياتها إلى أفلام سينمائيَّة، وهي: (كان اسمها سارة) وأنتجَ سنة 2010 / (بوم - رانغ) سنة 2015، و(موكا) سنة 2016، كما كتبتْ للمسرح أيضًا، وقدَّمت كتبًا كثيرة لكتّابٍ آخرين، وشاركتْ في كتابةِ عديدٍ من الأعمال التليفزيونية.

تُعتبر تاتيانا -حسب الاستفتاءات- مِن أكثر الرِّوائيين الفرنسيّين الذين يُقرأ لهم خارجَ فرنسا.

مقهى لويندال

إلى: ت.ت،

الذي أعطاني فكرةَ هذه القصَّة دونَ أن يقصِد.

(1)

«لا نستطيعُ أبدًا كتابةَ أيِّ شيء داخلَ اللا مبالاة».

سيمون دو بوفوار (1908 - 1986)

كان هذا منذُ خمسة أعوام، أستطيعُ الآن التكلمَ عنه، التكلم عنه دونَ ارْتجاف، أستطيعُ حتى كتابة اسمها: فيكتوريا.. فيكتوريا.. فيكتوريا، كتابة اسْمها دونَ الشُّعور بمغصٍ في البطن، دونَ الشعور بالرغبةِ في الاخْتفاء.. الرغبةِ في قتلها.. الرغبة في البكاء.. ولا الرغبة في الموت. كثيرٌ أن يستغرقَ ذلك خمسةَ أعوام، طويلٌ على الورق. إنه يعني خمسَ مفكِّرات، خمسةَ فصولِ صيف، خمسةَ فصول شتاء. خمسة أعوام، ولكنْ في الحياة -الحياة الحقيقية، الحياة الزلقة التي تتسرَّب من بين أيدينا دونَ أن نشعر، وتمْضي دون أن نستطيعَ رؤيتها- خمسةُ أعوام ليست بالمدَّة الكبيرة. أتذكرُ كلَّ شيء، كلَّ لحظة، كلَّ التفاصيل كما لو كانَ ذلك البارحة، سوف أتذكَّرُ فيكتوريا طيلةَ حياتي.

لم أكنْ أعرفها، ولكنَّنا تَشاركْنا رجلًا واحدًا، رجلًا كنتُ أحبُّه كثيرًا مثلما كان يحبُّني أيضًا. كانت قصةً طويلة أثَّرت فيَّ بعمق.

كان دييغو من نوعِ الرِّجال الذي يخترق كيانَك كالشِّهاب.. شهاب يحرقُ كلَّ شيءٍ يعترضُه، ومِن ذلك النوع الذي لا يمكن لامرأةٍ أن تنساه.

جاءتْ فيكتوريا بعْدي. لم أكن أعرفُ عنها الكثير، كمِهنتِها التي لم أتوقَّعها؛ مهندسة، ثمَّ جمالها، شَقرتها ورشاقتُها، لطالما أثارتْ فيكتوريا غيظي، خصوصًا عندما بدأ ينتشرُ كلامٌ من قَبيل أنَّ دييغو كان مسحورًا بها، لكنَّهما بالرغم من ذلك افترقَا.

قبلَ خمسةِ أعوام، في شهْر مايو من عام 2008 كنت أسكنُ في شارع «سوفران»، في العمارة عدد 1930. كان أولادي يدرسونَ خارجَ فرنسا، وكنتُ بالتالي بلا أيّ ارتباطات، أتذوَّق فقط طعمَ هذه الحريَّة الجديدة التي أهدتْني إيّاها الحياة. شقَّتي واسعة، مُضيئة وهادئة، وقد حرصتُ أن يكون أثاثُها بسيطًا. في تلك الفترة، كنت بصَدَد وضْع اللَّمسات الأخيرةِ على روايتي الجديدة، حيث كان عليَّ تسليمُها للنّاشر الذي كان ينتظرُها بفارغِ الصَّبر مع نهاية فصل الربيع.

كان يومًا مشمسًا، باعثًا للنشاط كما أحبُّ تمامًا. يومٌ سيغيّر مَصيري دون أن أعرف، فقد كان صباحًا عاديًّا كأيّ بداية ليوم جديد، مازلتُ أتذكّر القميصَ الأخضر الذي اشتريتُه من نيويورك، والذي كنتُ أرتديه عادةً في البلدة.

كانتْ جالسةً فوق أحدِ المقاعد العموميَّة الواقع في المفترقِ بينَ شارعي لويندال وسوفران؛ امرأة تتكلَّم في هاتفها. لم يكنْ عندي الوقتُ لملاحظةِ أكثرَ من ساقيْها النَّحيفتين. كلَّ صباح أقوم بنفس التمرين الرّياضي؛ أقطع الشارعَ عبرَ الممْشى المخصَّص لِلمُقعَدين، لأعودَ فيما بعدُ إلى بيتي عبر شارع «بروتوي»، وحتَّى لا يتعرَّف عليَّ أحدٌ من قرّائي؛ كنتُ أخفي شَعري الأحمرَ المشدود إلى خلفٍ على شكْل ذيلِ حصان تحتَ قبعةٍ تُخفي -كذلك- جزءًا جيدًا من وجهي، هذا ما جعلني أندهشُ عندما سمعتُ صوتًا نسائيًّا يهتفُ خلفي: غابرييل سيلاس!

منذُ خمسةِ أعوام، في ذلك الوقتِ الذي بدأتْ فيه شعبيَّتي ككاتبةٍ تتراجع، وبدأتُ أقتربُ من الخمسين؛ سنِّ المخاوف. ومعَ أنَّ المرآة ما تزالُ تمنحني صورةَ امرأةٍ مثيرة إلا إنّي لم أستطعْ تحمُّلَ مسحة الذُّبول بفعل التقدُّم في السنِّ التي بدأتْ تغزو وجهي وجسمي.

منذُ توقيعي أولَ العقود أصبحتُ ملكةً في عالم النشرِ وإمبراطورية الحروف، بعدَ ذلك العقد أصبحتْ رواياتي -التي تصدرُ بانتظام كلَّ عام- تتصدَّر قائمةَ الأعلى مبيعًا، ولكنْ منذ فترةٍ أصبحتْ مبيعاتُ كُتبي مخيِّبةً لآمال النّاشر، ونزلتِ الأرقامُ بشكل مُلفت، «لا شيء يستدعي القلق، ولكن يجب أنْ نفعل شيئًا»؛ هذا ما قالَه.

هل تركني قرّائي؟! هذا مؤكَّد. هل كانتْ كتبي تفتقرُ للتَّجديد؟ هل كانت مُتشابهة جدًّا؟ نعم، لقد تمَّ لوْمي على ذلك، وتوقَّعت مُسبقًا كلَّ الكلماتِ القاسية التي كانت تُصيبني بالقَشعريرة: «غابرييل سيلاس موضة قديمة، القراءة لغابرييل سيلاس أمرٌ مبتَذَل».

في ذلك الوقت، بدأ في الظهورِ قادمون جُدد إلى عالم الأدب، الموهوبون الشباب والأذكياء، الذين تفجَّروا على المنصّات الإعلامية، وطارتْ رواياتُهم إلى كلِّ أنحاء العالم، مثل «نيكولاس كولت» -عدوُّي الورقيُّ الذي أعلنَ ناشري وناشرُه الحربَ فيما بينهما- هذا الشابُّ الوسيم منتشرٌ بكلِّ وقاحة في كلِّ المحطات؛ فوقَ البلّور الخلفي للحَافلات، في القطار، على كلِّ لوحاتِ الدّعاية في قلب باريس، في كلِّ مكان! بدَا الأمرُ أشبهَ بالاستعراض، أرقامُ مبيعاتِ روايته الثانية -التي تدورُ أحداثها في «سانت - بيترسبورغ»- كانت خياليَّة ومدوِّخة، صعدَ بسرعة قياسيَّة إلى رؤوس القوائم، هذا لا يصدَّق! إنه يغيظُني ويسخرُ منّي. أنا شعرتُ بهذا على الأقل، حتى وإنْ لم يكنْ حقيقيًّا، لأنني كلما التقيتُ بكولت في البرامجِ التلفزيونية أو في صالوناتِ الكتب أعترفُ تلقائيًّا بأنَّه شخصٌ لطيف ومهذَّب.

«هذه أنتِ؟»

كانتْ جميلة، ذلك الجمالُ الطَّبيعي الذي لا تحتاجُ معه النساء إلى بذل أيِّ جهدٍ إضافي لإبرازه. لم أستطعِ التعرفَ عليها.

«عذرًا، نحن لم نلتَقِ أبدًا، ولكنْ دييغو حدَّثني كثيرًا عنكِ. أنا فيكتوريا».

رفعتِ الكُلفةَ وهي تُخاطبني ولكنَّ ذلك لم يزعجني، على العَكس أشْعرني بشيءٍ من الودِّ بيننا. فيكتوريا الشَّهيرة وابتسامتها، كانت ترتدي تنورةً قصيرة من الجينز، سترةً بيضاء، بشرتُها بلوْن الذهب، لا تحملُ إكسسوارات، وذاتُ نظرةٍ خضراء تميلُ إلى الرمادي، نظرة صريحة ومباشرة. فيكتوريا التي تصْغرني بعشْر سنوات.

أجبتُها مُبتسمة أيضًا: «فيكتوريا! أخيرًا أصبحَ عندي وجهٌ لهذا الاسم، هل أدعوكِ لشربِ القهوة؟ عندَكِ وقت؟ ثمة مكانٌ أحبُّه كثيرًا؛ شارع لويندال».

مشتْ إلى جانبي. بالكاد كنتُ أصلُ إلى كتفِها، قدَّرتُ أن طولَها لا يقلُّ عن مترٍ وثمانينَ سنتيمترًا بدون كعْب. خطواتُها رشيقة. كانت ساحرة! كنت أريدُ معرفةَ كلِّ شيء منها، كلِّ شيء عن قصَّتها مع دييغو. كانت رغبةً مَريضةً أعترفُ بهذا، ولكنْ بيني وبين دييغو كانت العلاقةُ تميلُ أكثرَ لأن تكون هَوسًا جنسيًّا.. كان يشحذُ احتياجاتي الجسدية، ويضعُني بشكلٍ دائم في حالة تعطُّش واشتياقٍ له، حتَّى لو كان في الغرفةِ المجاورة لي، وليسَ فقط عندما يكون في مكانٍ بعيد. تساءلتُ بيني وبينَ نفسي كيف تعامَلَ معها؟ هل كان أكثرَ رقَّة أم أكثرَ جنونًا؟

عندما كانت جالسةً أمامي في مقهى لويندال، انزلقتْ عيناي إلى فخذيْها المشْدودين، رحت أتخيلُ يدَيْ دييغو وشفتيْه على هذا الجسد، تخيَّلت عناقَهما ولحظاتِهما الحميمة، لم أكنْ لأشعر بالغِيرة لو لم تكنْ

جميلةً لهذا الحدِّ، لو اقتصر الأمرُ على علاقتِهما وماضيهما فلنْ أبْدي أيَّ إحساس، فقط هذه الرَّغبة الجارفة لمعرفةِ كلِّ شيءٍ واكتشافه.

كنتُ سأحترم ربَّما رغبتَها في ترك مسافةٍ بينَ ذكرياتها الحميمة والآخرين لو شعرتُ أنها تريدُ ذلك، ولكنْ عندما بدأتْ من تِلقاء نفسِها في الحديثِ عن دييغو دونَ أن أحتاجَ لسؤالها، تركتُها تفعل. استمعتُ إليها بينما أحرِّك قهوتي وأهزُّ لها رأسي بكلِّ بساطة، كما لو أنَّه من الطبيعيِّ جدًّا الحديثُ عن حبيبٍ سابق.

الحديثُ عن دييغو لم يكنْ أمرًا سليمًا؛ كان بمثابةِ فتْح الباب على كلِّ المخاطر، وكانَ بالإمكان أنْ تعْتريني الشكوكُ ببساطةٍ حيالَ كلِّ قناعاتي.

لم تستطعْ حضورَ مَراسم الدفن؛ ففي ذلك الوقت - في العام- 2005 كانت تشتغلُ في إسكندينافيا، وكان مِن المستحيل التحررُ مِن التزاماتِها هناك. قلتُ لها كلَّ ما يجبُ أن تعرفه عن ذلك اليوم: المقبرة الصَّغيرة في بريتاني، رَذاذ الأمطار الذي كان يتساقَط، السماء المنخفضة، الريح، حشد الأشخاص المزدحم والصّامت، وقار والديْه اللَّذيْن لا يزالَا واقعيْن تحتَ صدمة موتِه المفاجئ، حادث الدَّراجة النارية وسطَ ليلٍ كثيف على الطريق السَّريعة، صديقته الجديدة، جمالها ووجهها الشاحب، وكيف كانت واقفةً على حافَّة السقوط مثلَ وردةٍ تُصارع الذبول.

«وأنا أسمعكِ، شعرتُ كما لو أنَّني كنتُ موجودةً هناك؛ إنَّها قدرةُ الكتّاب الخارقةُ على وصْف الأشياء».

طلبتُ فنجانَ قهوة آخرَ، وجاوبت:

«الكُتّاب ملاحِظون جيدون فقط».

«ربَّما، هل تعرفين؟ أنا أكتبُ أو أحاول الكتابةَ منذُ وقتٍ طويل».

سمعتُ هذه الجملةَ كثيرًا، تملؤني فورًا بنوعٍ غريب من الذُّعر، قرّائي يكرّرونَها على مسامعي بلا توقف، يرسلونَ لي مَخْطوطاتهم، يرسلونها باسْمي على عنوان دار النَّشر، أو لي مباشرةً عبرَ البريد الالكتروني، لم أقرأها مرَّة! متفجراتُ الورق هذه تثيرُ خوفي، العالمُ كلُّه يكتب! كلُّ الناس يطمحونَ أن يصبحوا كتّابًا. «ولكنْ كيف تفعلونَ ذلك؟» يسألونَني باستمرار، «أنا أيضًا أريد أن أنشرَ كتابًا، قولي لنا كيف»، «فيما يتمثَّل سرُّكم؟ نريدُ أن نعرف، ما وصفتُكم؟ كيف يحدثُ هذا؟ احْكي لنا، قولي لنا كلَّ شيء!».

«لا أعرف مِن أين أبدأ». صارحتْني فيكتوريا مثبتةً نظرتَها على عينيَّ. «أسجِّل ملاحظات، لديَّ ملاحظاتٌ لا تنتهي، ولكنْ لم أفلحْ في إيجاد طريقةٍ لصوغِها، أنا ضائعة».

نجحتُ في إخفاءِ ضيقي، لم أعدْ أحتملُ هذه الأسئلة التي تتعلَّق بعملية الكتابة، لم أعدْ أمتلك الصبرَ حيالَ هذا الكمّ الهائل من البَشر الذين يحلمونَ بالشُّهرة، فكَّرتُ في اختصار جوابي في دقائق، ومن ثمَّ تغيير الموضوع، ولكنْ ليس بعدَ أن نطقتْ فيكتوريا جُملتها المذْهلة:

«أنا أكتبُ عنه؛ عن دييغو، عن موتِه، وعن علاقتنا».

اعْتَرتني رجفةٌ من أخمص قدمي حتَّى رأسي.

لم تكنِ الضجَّة قد بدأتْ بعدُ في مقهى لويندال ذلك الصباح، كان بعضُ الزبائن القارّين يمسكون جرائدَهم أو حواسيبَهم، والآخرون -الزبائن العابرون أو السائحون- في طريقِهم للذهاب إلى التّوريفال، أمّا أنا وفيكتوريا فقدْ كنّا جالستيْن في شرفة المقهى المشْمِسة في ذلك اليوم من شهر مايو، جلسة عاديَّة جدًّا، كأنَّ شيئًا لا يحدث، لا أحد بإمكانه توقُّع مَن نحن.. أو ماذا نقول، أيُّ عابر سَيرانا، ومهْما كان خيالُه شاسِعا لن يتخيَّل فيما نتكلم.

كان بإمكاني إذًا تغييرُ الموضوع، سؤالُها مثلًا عن عملها، عنْ حياتها الآن، هل دخلَ رجلٌ إلى حياتِها؟ هل أصبح عندَها أطفال؟ أين سافرتْ مؤخَّرًا؟ هل شاهدت فيلمًا جيدًا؟ هل قرأت روايةً مهمَّة؟

ولكنَّني بدلًا عن فعلِ ذلكَ استسلمت، لم أقاومْ، وسألتُها:

«رواية عنْ دييغو!؟ وأين وصلتِ؟».

«لا أعرف. المسألةُ ما تزال ضبابيَّة، كتابتي مشتَّتة».

صمتُّ للحظةٍ ثمَّ قلت:

«أستطيعُ مساعدتكِ لو تريدينَ، بإلقاءِ نظرةٍ على ما تكتبين».

(2)

«الجنان الحقيقيَّةُ هي تلك التي فقدْناها».

مارسيل بروست (1871–1922)

البحثِ عنِ الزَّمن المفقود

هنا، حيث أعيشُ الآن، ليس ثمَّة شيء سوى الوحدة؛ هذه الوحدةُ الكبيرة هي الثمنُ الذي كان يجبُ أنْ أدفعه. عندما أفتحُ نافذتي في الصباح يشدُّني اللونُ الأزرق، السماوي، النَّقي والباذخ، يدخل غرفتي فيمنحُني هالةً نورانيَّة، ويجعلني أفضلَ، يمحو الألمَ والعذابَ لبعض الساعات.

لا أحد يتعرَّف عليَّ هنا، لا أحد يعرف مَن أنا، اسمي لا يعْني لهم شيئًا، ولا وجهي، شَعري لم يعدْ أحمر، بل ما عدتُّ أصبغُه على الإطلاق! أصبحَ أبيض طبيعيًّا، مع قَصَّة على طريقة اللويز بروكز، عندما أنزلُ إلى البلدةِ للتسوُّق، قريبًا من النافورة، كانوا يُلقون عليَّ التحيةَ بلطف، ولأنَّني لا أتكلم لغتَهم بشكلٍ جيد؛ كنتُ أتواصلُ معهم عبرَ الحركات والابتسامات. بالنسبةِ لهم لستُ أكثرَ من المرأة الفرنسية التي اشترتِ المنزلَ القديم الواقع خارجَ أسوار البلدة، المرأةِ الوحيدة التي لا يأتي أحدٌ أبدًا لزيارتها، المرأةِ التي تعيش مع كُتبها وقطتَّيْها.

في بعضِ الأحيان، عندما يصل بعضُ السائحين إلى ساحةِ البلدة ويقرّرون شربَ كأسٍ على شرفة البار، أرى كتبي بينَ أيديهم وألاحظُ أنَّهم يقرؤونها، تصدمني دائمًا فكرةُ أنْ تواصل رواياتي حياتَها من دوني، وفي كلِّ اللغات! شعورٌ غريب، كتبتُ عشَرة كتبٍ لم تعدْ في حاجة لي ليشتريَها أحد، أو لتجوبَ العالم.

قبلَ فيكتوريا، كنت أتمتَّع ببعض الشُّهرة، أمّا بعدها فقد أصبحتُ كوكبًا من كواكبِ المشاهير، غير أنّي لم أمكثْ في فرنسا لأستغلَّ ذلك؛ فقد فضَّلتُ الهروبَ إذْ لم يكن عندي خيارٌ آخر.

المنزل كبير، ومَليءٌ بالضَّجيج.. الصرير والفرقعَة، يتفاعلُ مع الرطوبة، العفن، القشرةُ الطُّحلبية الخضراء والخشب القديم، هذا المنزلُ الذي يحميني وأعدُّه مَلجئي. في الطابق الأول، توجَدِ الغرفةُ الكبيرة حيث أقضي الجزءَ الأكبر من نهاري، أواجِه الجبالَ والطبيعة، وحيثُ بإمكاني متابعةُ مَسار الشمس في السَّماء. لم أجلبْ شيئًا معي من باريس، اشتريتُ كلَّ شيء من هنا، مِن أسواق السلع المستعملة، جمعتُ أغراضي من هنا، قطعةً إثرَ قطعة. لا يجب التعلقُ بالأشياء ولا الأماكن؛ لأنَّنا إمّا نفقد في النَّهاية كلَّ شيء، أو نرحلُ عنه، الآنَ فقط عرفتُ ذلك كله.

النَّهارات طويلة بينما الليالي قصيرة، ذلك لأنَّني أنام لساعاتٍ قليلة جدًّا، منذُ فيكتوريا تغيَّر نومي كثيرًا.

في كثيرٍ من المرّات، يحلو لي أن أستمعَ إلى الموسيقى العالية في مُنتصف الليل، ليس عندي جيرانٌ ليشتكوا. أضعُ فرقة «الرولينغ ستون» أو «باتي سميث» وأرفعُ الصوتَ إلى أقصى حدٍّ، أرقص وحيدةً داخلَ هذه الغرفة التي لا شيء فيها عدا الكتب وطاولة وكرسيّ، أدخِّن سيجارة وأسكبُ لنفسي كأسًا من النَّبيذ الأبيض، تتساقط بعضُ الدموع عندما أفكرُ في شبابي الذي طار.. في سنواتي الجميلة.. في كلِّ المجد الذي لامستُه، ماذا تبقَّى من كلِّ هذا؟ لا شيء، أرى انْعكاسي على زجاج النّافذة، امرأة في سنِّ ما، بشَعرٍ أبيض، ولا أتعرَّف عليها.

أينَ ذهبتْ تلك الروائية المتوهِّجة؟ ذاتُ الشَّعر الأحمر والبَشرة اللبنيَّة، روائية المنابر التلفزيونية، التي يستوقفها المارةُ في الشارع ليطلبوا منها

توقيعًا، التي مِن المستحيل أن تستطيع الردَّ على بريدِها الغزير؟ غابريال سيلاس لم تعدْ موجودة، إنَّها اليوم محضُ سَراب، أتساءل ماذا يقول قرّائي عنّي الآن؟ الأغلبيةُ تعرفُ أنني آثرتُ الاختفاءَ بعدَ الذي حصل، أقنعوا أنفسَهم أنَّني سوف أكتبُ عملًا جديدًا، سوف أقلبُ الصفحةَ وينتهي الأمرُ بأن أعود، لكني لم أعدْ أبدًا، ذهبتُ إلى الأبد.

سوف أواصلُ الكتابة حتى آخر يوم في حياتي، لكنَّ شيئًا لن يُنشر. أشرتُ إلى ذلك لكاتبِ العدل ولمحاميّ، وكتبتُه في وصيتي. داخلَ المدفأة الحجريَّة الكبيرة حرقتُ كلَّ ما استطعتُ كتابته منذ انْتقالي للعيشِ هنا، وهكذا لن يقرأ لي أحد.. أبدًا.

قطَطي هُم رفاقي، يرؤْنني وأنا أسوِّد آخرَ الليل تلك الصفحاتِ التي تنتهي إلى رماد، ليس ثمَّة هاتفٌ في المنزل القديم ذي الحديقةِ الخضراء، يوجد فقط إنترنت، أكلِّم أولادي على السكايب مرَّةً في الشَّهر، يعيشون حياتهم، فقد أسَّسوا عائلات الآن، وأنجبوا أطفالًا، يتخيَّلون أنني تعافيتُ من الفَضيحة، ومن كلِّ ما تبعَها، ومُقتنعون أنني نسيتُ أخيرًا فيكتوريا.

لا يعرفون أنَّني لن أستطيع النسيان أبدًا.

****

في ذلك اليوم من شهرِ مايو 2008، في مقهى لويندال، حيث دار كلُّ شيء، قالت:

«فعلًا، غابرييل!؟ عندَك الوقت للنَّظر في ملاحظاتي أو مسوَّدتي؟ يجبُ أن تكوني مشغولة جدًّا!».

أجبتُها مُبتسمة:

«طبعًا عندي الوقت، هذا يُسعدني، كيف تريدين أن نبدأ؟».

- لا أعرف (ردَّت متعجِّبة)، ليس لديَّ أدنى فكرة! أنتِ الرِّوائية الكبيرة، أنتِ مَن تجيد الكتابة، أنا أتلمَّس طريقي على نحوٍ أخْرق، أدور حولَ هذا الكتاب منذُ موت دييغو، وأشعرُ بالضياع».

اقترحتُ عليها أن ترسلَ لي تلك الملاحظات على بريدي الإلكتروني، أقرأ كلَّ شيء ومِن ثمَّ أعود لها لنَتناقش، ماذا فكَّرت؟ بدتْ مُبتهجة، بل ومتأثِّرة.

«ولكنَّه فعلًا بلا رأسٍ ولا عقب، أنا متأكدة أنك ستجدينَ ما كتبتُه بلا أيَّة قيمة، أنا خجلة بالفعل من إعطائك هذا لتقرئيه قبلَ أن أعود للاشتغال عليه».

- يجب أن تتشجَّعي، (قلتُ لها)، يجبُ أن تبدئي وأنا سأساعدُك. سنرى كيف يمكننا تنظيمُ مُلاحظاتك هذه، سوف أحاولُ أن أضعَك على الطريق الصَّحيحة بطريقة ما، ومن ثمَّ سيكون دورُك لتعملي».

أيّ مُنافِقة كنت! ولكن كيف كانَ بإمكاني الاعترافُ لها أنَّ مخطوطتَها لا تهمُّني، وأن نشرَ النسخة النّهائية منها أمرٌ لا يعنيني؛ كلُّ ما يهمُّني كان أن ألتقطَ أكثرَ ما يُمكنني عن دييغو، وعلاقتها به، كيفَ لم أحدسِ البقيَّة؟ فضولي المتزايدُ غطَّى على كلِّ التَّبعات التي كانت واضحةً أمامي، رغبتي في رفْع النِّقاب عن قصتهما أعمتني.

يسْحَرني دييغو دائمًا، وبعدَ موته أكثر، الكتابة عنه! فكَّرتُ في ذلك ولكنّي لم أجرؤ أبدًا. بدَا لي ذلكَ مستحيلًا، حبُّنا كان أشدَّ التصاقًا بجلْدي من أن أستطيعَ وضعَه على الورق، كان أشبهَ بالانْصهار، وحميميًّا إلى حدٍّ بعيد جدًّا، أمّا انفصالُنا فقد كان مُفجعًا.

بدأتْ مغامرتُنا مباشرةً بعدَ طلاقي في عام 2003، تعرَّفتُ عليه خلالَ عرض أول فيلم لصديق مُشترك. وفي حفل الكوكتيل الذي أقيم عقبَ العرض، لاحظتُ أنَّ عينيْ رجُلٍ يرتدي جاكتة من الجلد مُثبَّتتان عليّ، وقد ضايقَني ذلك.

«أنتِ الكاتبة؟».

سألني بجديَّةٍ دونَ ابتسام، وأيضًا دون عدوانية. سؤال بسيطٌ ومباشر. أجبتُ بنعم، أنا الكاتبة، وقمتُ بانحناءة احترامٍ صغيرة، فضَحك! وهكذا بدأ كلُّ شيء، بهذه الضحكةِ وهذه النظرة.

كان له مظهرُ مغنّي روك قادم من عام 1970، شيء يشبه «جيم موريسون» ولكنْ على الطريقة الفَرنسية؛ فمٌ واسع، شَعر طويل، أسنانٌ بيضاء جدًّا، إذا ما تعرَّفتَ على دييغو ستصرخ مباشرة أنَّ كلَّ شيء تغيَّر واختلفَ معه، لا مكان للتوقُّف أو الاستراحة، معه نترك ريشَنا خلفنا، وجزءًا من أرواحنا. كان صحفيًّا في الإذاعة، المستمعون يواصلونَ الاستماعَ لصوته حتَّى آخر الليل. صوتُه الخطير، المثير، الذُّكوري، المزلزل، المليء بالإحساس..

«وأنتِ، أين عرفته؛ دييغو؟».

يومَها، في مقهى لويندال، أجابت فيكتوريا:

«في قطار».

وابتسمتْ بغُموض.

في قطار...

لم أفكرْ سوى في هذا اللِّقاء على الطريق الحديدية الذي فاجأني، كنتُ أحترق لأعرفَ منها مزيدًا من التَّفاصيل، ولكنْ حاولتْ جاهدةً إخفاءَ ذلك. افترقنا بعدما تبادلنا العناوينَ وأرقامَ الهواتف، ثمَّ رجعت إلى بيتي، وقضيتُ يومين أو ثلاثة في مراقبة بريدي.

منذُ خمسةِ أعوام، جاءتْ هذه القصة لتقلبَ كلَّ شيء. كنتُ أقضي معظمَ ساعات نهاري في الكتابة، في العملِ على روايتي التي كان عليَّ تسليمُها للنّاشر في أسْرع وقت. لم أكن أخرج، أو ربما كنتُ قلَّما أخرج، وكنتُ لا ألتقي في تلك الفترة سوى أصدقائي المقرَّبين جدًّا، أو أعضاء دار النشر، التي انتظرتُ ملاحظاتِها، انتظرتُها بصبرٍ نافد، لم أكن أنتظرُ سواها.

بعدَ ثلاثة أيام وصلتْ مُحمَّلة داخل ملفِّ وورد، عليه عنوان «رواية». ضغطتُّ على الملف، وفورًا بدأت في طباعتِه على الورق. كان يحوي ستينَ صفحة. آلة الطباعة تقرقر، تسحبُ الورقَ وأنا أنتظر. في الأثناء، سكبتُ لنفسي كأسَ شاردوناي وتأمَّلت المنظرَ خارجَ زجاج النافذة.

شقةُ شارع سوفران كانت في الطابق الثاني. ألقيتُ ببصري على سقفِ مبنى اليونسكو، وأعلامه التي كانت ترفرفُ في الهواء، ثمَّ شارع سيغور، شارع دوكيسن، ومن ثمَّ القبَّة المذهَّبة لِبناية «لي أنفاليد».

عندما توقَّفتِ الآلة عنِ الطباعة ركضتُّ إلى حزمة الورق، ثمَّ جلستُ على الكنبة.

قبلَ البدْء بقراءة ملاحظاتِ فيكتوريا اعتراني شعورٌ داخلي غريب، شيء عابر؛ كما لو أنَّ شبحًا انزلقَ في ظهري، وجعلني أرتعد.

تردَّدت، مازالَ الوقتُ سانحًا ألّا أقرأ شيئًا، وأنْ أرمي هذه الأوراقَ التي قمتُ بطباعتها، أن أتعلَّل بأنني لم أجدِ الوقت، أو أخترعَ أيَّ عذر آخر.

توقَّفتْ عيناي عندَ الفقرة الأولى..

لقاءٌ داخلَ قطار.

لا أحد سواهما في المقصورة، فقط هما؛ هما الاثنان.

هي، فستانٌ من الجينز. هو، جاكت من الجلد الأسود، وبنطلون جينز أسود. كان يلبس خوذةَ دراجةٍ نارية. هي تقرأ ملفًّا على كمبيوترها المحمول.

كانَا يجلسان وجهًا لوجه.

تلامستْ ركبتاهُما تحتَ الطاولة، لم يعيرا لذلك اهتمامًا.

كانت مركزةً على نصِّها، أمّا هو فيُمعن النظرَ بمناظرِ الطبيعة خلف النافذة.

التقتْ أعينهما.

شيء مُلحّ.

ضرورة، بداهة.

في تلك اللحظة، مباشرة.

الآن.

كنت أعرفُ مُسبقًا أنَّني لن أستطيعَ التوقفَ عن القراءة.

(3)

«الأفكارُ القبيحة تأتي من القلب».

بول فاليري (1871–1945)

مزيج

أحيانًا، أثناء نومي - تلك الاستراحةُ القصيرة الأشبَه بالاستنزاف الذي أتعرَّض إليه منذ انتقالي للعيش هنا- يستبدُّ بي نفسُ الكابوس؛ أنا في غرفتي.. هذه الغرفةُ التي أنام فيها كلَّ ليلة منذ ما يقاربُ الثَّلاثة أعوام، التي تحملني على الهدوء واستعادةِ الطمأنينة، والتي رغم كلِّ ذلك تتحوَّل أحيانًا إلى مكانٍ مُرعب.

هي غرفةٌ تحتَ السطوح، سقفُها مرْصوف بعوارض خشبيَّة، وجدرانُها من حجر. إحدى نوافذها تطلُّ على الحديقة العَطرة، وعندما ينقشع ضبابُ الحرّ في البعيد ينكشفُ البحر.

في هذا الحلم، تفتح امرأةٌ البابَ دون إحداثِ صوت، تتقدَّم بصمتٍ مُنحنية، منكمشةً على نفسها، كما لو أنَّها تحمل عبئًا ثقيلًا على ظهرها، تقتربُ من السرير حيث أنام، حتى أشعرَ بأنفاسِها فوق وجْهي؛ نفَسٌ كريه، نَتن، مُثير للقَرف. تبدأ في التأرجُح بين الأمام والوراء، بشكلٍ ديناميكي، مثل دميةٍ مُروّعة، والغناءِ بصوتٍ خفيض، لاَ أرى وجهَها، لاَ أعرف هل هي شابَّة أو عجوز، ولكنْ أعرفُ أنها تُخيفني، وأنَّي أريد أنْ تذهب. يتحوَّل الغناءُ إلى نوعٍ من الصُّراخ الحاد بينما أصابعُها تزحفُ على طول الملْحفة، متَّجهة نحْويً كأنها حشرات. أحاول الهروبَ منها، ولكن مُستحيل، يتهيَّأ

لي أنَّ كتلةً ثقيلة تجثو على صدْري، وتسمّرني فوقَ السرير بطريقةٍ لا أستطيع معها التحرُّك. أصبحُ باردةً متجمّدة. المرأةُ تتضرَّع لي وهي تهمسُ باسمي بصوتٍ منخفض جدًّا، أجشّ، مُزعج. أعرف أنَّ كثيرًا من القوة تلزمني لأستطيعَ الحركةَ ولأستطيع إنقاذَ نفسي من هذا الخدر الخانق، أحاولُ بكلِّ قواي أن أرفع يدًا، ثمَّ الأخرى، وعندما أستطيع التلفُّتَ أخيرًا خائفة، أرى برعبٍ أنها تحملُ رضيعًا بينَ يديها؛ كائنًا صغيرًا، داميًا وضعيفًا، مثلَ حزمةٍ من الغسيل المرشوش باللون الأحمر، ثمَّ تمدُّ يديها لتُعطيه لي وهي تصيح، تريد أن أحملَه بينَ ذراعيّ، ومن قبْل أن أفعلَ أبدأ في اشتمام الرائحة الفَظيعة للرَّضيع الميت وهي تضوعُ منّي.

استيقاظي يكون وحشيًّا ومفزعًا، أحتاج لكثيرٍ من الوقت لأستطيع التنفُّسَ بشكل طبيعي، يجب أن أنزلَ إلى المطبخ، والقططُ بين قدميَّ، وأشرب كأسًا من الماء لأنتعش، أكون عارفةً مسبقًا أنني لن أتمكّن من العودةِ إلى النوم، وأنَّ الليل لا يزال طويلًا جدًّا قبلَ أن يُقبل الفجر، لا يتبقى لي سوى شيء واحد لأفعله؛ أنْ أعود لطاولةِ عملي وأكتب.. الكتابة، لا يوجد أكثرُ من هذا في حياتي حاليًا.

لا أعرف مَن تكون هذه «الأمّ دولوروزا»[1] التي تطاردُ لياليّ! لا أستطيع التعرفَ على وجهها الشَّمعي، سحنتها الهزيلة والكئيبة، ولكنَّني أعرفُ من ناحية أخرى لماذا كانت تمدُّ لي يديها بطفلٍ ميت؛ كانت تُعطيني الطفلَ الذي كان يُفترض أن أنجبَه من دييغو.. الطفل الذي رفضتُ الاحتفاظ به.. الطفلُ الذي تمنّاه أكثرَ من أيّ شيء آخر. ذلك الإجهاضُ السرّي، الذي أخفيتُه حتى عن أصدقائي المقرَّبين، وعنْ زوجي السابق؛ كان السببَ في انفصالنا. لم يحظَ دييغو أبدًا بأطفالٍ من بعدي،

(1) أيقونةٌ في الديانة المسيحية تمثِّل أمًّا حزينة.

بالرغم مِن علاقاته، وبالرَّغم من فيكتوريا، ماتَ في حادث دراجةٍ نارية دون أن يترك مَن يحمل اسمه.

سَحرتني ملاحظاتُ فيكتوريا إلى الحدِّ الذي جعلني أقرؤها كلَّها دفعةً واحدة، ناسية حتَّى أني كنت مدعوَّةً للعشاء معَ صديقةٍ هذا المساء. ولقد كانتْ بالفعل عبارة عن فوضى من الكلمات والجُمَل التّافهة التي لا تتحدَّث إلّا عن دييغو وقصتِهما معًا، غيرَ أنّي لم أستطعْ تركَ هذا الركام الذي لا بدايةَ له ولا نهاية، والذي أقرؤه على أنَّه مذكراتٌ حميمة حيث كنتُ الوحيدةَ التي تستطيع فكَّ شيفراته، وحلَّ رموزه السِّرية. الفضولُ يتورَّم بداخلي مثلَ نوعٍ من الجوع الجشع، حيث أشعرُ معه بالخجل من نفْسي. ابتهجتُ بمعرفة تفاصيلِ لقائهما، بالليالي التي قَضياها معًا، الانتظار عندما تضطرُّ هي للسَّفر، الأحاديث الليليَّة الحالمة، الخلافات، الضَّحكات المجنونة، الخصام.. كانت قراءةً محمومة ومُثقلةً بالمشاعر، غيرَ مُتناسقة، مُقلقة.. لهذه القائمة الفوْضوية لدوّامة عشْقهما، كلُّ شيء كان مكتوبًا في نِتفٍ مفكَّكة. علاقتُهما الجنسية الأولى في حمّام القطار، فيكتوريا واقفة، بطنُها مقابل للمَغْسلة اللَّزجة، تضغطُ على جسده بخصْرها، وأصابعُها بين شَعره، وجهاهُما الذاهلَان في المرآة المبقَّعة، تصاعدُ النَّشوة، والأسئلةُ التي تبادلاها فيما بعد.

عليَّ التفكيرُ بعد ذلك، كيف سأتحدَّث مع فيكتوريا؟ كيف سأعلنُ لها أنَّ هذه الفوضى من الملاحظات (رغم أنها مثيرةٌ بالنسبة لي لأنّي عرفتُ دييغو) لن تهمَّ القارئ في شيء، وأنَّها يجب أن تحتوي على معنى، وأنَّه من الضروري أن تعيدَ ترتيبَها وصياغتها. أنا لا أعرفها جيدًا في نهاية الأمر، وبالتالي لا يمكنني توقعُ ردودِ فعلها.

كيف ستأخذُ انتقاداتي؟ قرَّرتُ أن أعطيها موعدًا في مقهى لويندال، وأشرحَ لها بلطفٍ وحزم أنه بطريقةٍ أو بأخرى هذه الملاحظات لا تصلحُ لأنْ تُنشر، ليس عندي الوقتُ لأنكبَّ على هذا «البازار» لحلِّ كرة الخيوط المتشابكة هذه، هي مَن عليها القيامُ بهذا العملِ، إذا كانت تطمحُ لكتابة روايةٍ فعليها تسخيرُ نفسِها لذلك.

جاءتْ لتُقابلني في مقهى لويندال، شعرُها مربوط، وتلبس طقمًا صيفيًّا رسميًّا، لا يخفي رغمَ ذلك شيئًا من جَمالها، رقة بياضِها تثير حيرتي، شككتُ أنَّ وراء هذا المظهر الناعم الشَّفاف تختبئ قبضةٌ حديدية. يستيقظُ فضولي من جديد، ما الذي وَجدَه دييغو في هذا المزيج المحيِّر من القوَّة والهشاشة؟! رغمًا عنّي استحضرت جزءَ القطار، إلى حدِّ أنْ تهيأ لي أنَّني شهدتُّ على ذلك اللقاءِ الجنسي الأولِ بينهما، وأنَّني استمتعتُ بذلك أيضًا.

يجبُ أن تذهب إلى مدريد لحضور مؤتمر، كانت مسْتَعجلة، وعينُها على ساعتها. فيكتوريا لا تحبُّ التكلم أبدًا عن عملها، حاولت مرارًا سؤالها ولكنَّها كانت تجيبني بنوعٍ من التهرَّب.. إنها تريد الكتابة.. الكتابة، نقطة!

تريدُ أن تعرف كيف تبدأ هذه الرواية، وتسأل إن كانَ بإمكاني مساعدتُها في إيجاد ناشرٍ عندما تنتهي منها؛ أنا التي تعرفُ جيدًا عالم النشر، هل مِن المسْتَحسن أن تتَّخذ اسمًا مستعارًا، أم تنشرها باسمها الحقيقي؟ بماذا يمكنني نُصحُها؟

«ولكنَّك تضعين المحراثَ قبلَ الثور!». قلتُ لها في قمَّة الضيق.

كيفَ سأجعلها تفهمُ أنَّ الكتابةَ هي أن تجلسَ وحيدًا مع نفسِك لتحكي حكايةً سيقرؤها غيرُك؟ وأنَّ هذا قد يستغرق سنوات؟!

«ما الذي تريدينَ التكلمَ عنه؟ (سألتُها ببرود)، عمّا تريدين الكتابة؟ لأنَّ كلَّ هذه الملاحظات التي كتبتِها، كما تعلمين، ليسَ لها معنى، لا يمكن أن تهمَّ قارئًا في شيء، ما الذي تريدينَ إظهارَه بالضَّبط؟».

بدَا عليها الاضطراب. عيناها المفتوحتان تنظرانِ لي ورموشُها تهتزّ.

- أريد التكلمَ عنه.

- جميلٌ أن تتكلَّمي عنه (جاوبتُها بانزعاج)، أهمُّ شيء أن تعرفي كيف، عليكِ التعبير عن شيء خاص، يجب أن تذْهبي إلى أعماقك، إلى أعمقِ أعماقك، وأن تعبّري عنه.

- أضعُ أمامَ نفسي كثيرًا من الحواجز، أخاف..

- ولكنْ ممّ تخافين!؟ (سألتُها مندهشة).

تردَّدت، ثمَّ قالت:

- ممّا سيفكرُ به الآخرون عني.

- إنْ كنت تخافين مما سيفكرُه الآخرون بك؛ إذًا فلن تكوني كاتبةً أبدًا، فيكتوريا.

لم أشأ أن يخرجَ صوتي فظًّا وقاسيًا، رغمَ ذلك لم أستطعِ التحكمَ به. فيكتوريا لم تردَّ على كلامي، أكملتْ شربَ كأس الشاي بهدوءٍ تامٍ دونَ النَّظر إليّ، هل كانت غاضبة؟ هذا ما لم أستطعْ معرفته.

كان مقهى لويندال فارغًا في ذلك الصباح. كثيرٌ من الباريسيّين ذهبوا لقضاء عطلةِ نهاية أسبوع ربيعيَّة مطوَّلة، كنّا وحدنا.

قالتْ أخيرًا بنبرةٍ خَشِنة، فاجأتني منها:

«أعْطني نصيحةً أخيرة، رغم ذلك! أيّ شيء يُساعدني لأتقدم.

- اكْتبي عنِ الحدث الأشدِّ قربًا من قلبك. في هذه الرِّواية التي تحلمينَ بكتابتها تخيَّلي شخصياتك، استخدمي دفترًا صغيرًا،

وسجّلي كلَّ شيء بخطِّ يدك، يجب أن تَري تلك الشخصيات، يجب أن تعْرفي كيف يلبسون.. كيف يأكلون.. كيف يتكلَّمون.. ماذا يحبون.. وماذا يكرهون.

بدتْ راضيةً على هذا الاقتراح وشَكرتني. اتَّفقنا أن نلتقي بعدَ أن تكتبَ هذا الحدث، وبعد إيجاد وخلْق شخصياتها. عدتُّ إلى بيتي في شارع سوفران، مفكِّرة، هل ستنجحُ فعلًا في كتابةِ هذه الرِّواية؟ هل تمتلك حقًّا موهبةَ الكتابة؟ أتذكر وجهَها الرَّصين والمحبَّب، ثنيةَ رَقَبتها الملساء، تحتَ ذيل الحصان الذي رتَّبت شَعرَها على شكلِه، والذكاء الذي يشعُّ من نظرتها.

ثمَّة بريد يَنتظرني من ناشري، يقول إنه قَلقٌ حول تقدُّمي في كتابة الرِّواية، ويُخبرني أنني لو أرغبُ فعلًا في دُخول سباقٍ أعلى المبيعات معَ نيكولاس كولت عليَّ بذلُ جهدٍ إضافي، والمضيُّ بأقصى سرعة، وأنَّ مخططَه التَّسويقي عندَ صدور الرواية سوف يكون شرسًا. شعرتُ أنني متعَبَة من الآن، وحتى من قبل أنْ يبدأ الترويج!

عليَّ إنهاءُ هذا الكتاب، بضعةُ أسابيع من العمل لا أكثر. بدَا لي أن أجلسَ على مكتبي هذا المساء أمرًا مستحيلًا، رسالةُ الناشر أزعجتني، هذا الابتذالُ والهوَس في النَّظر إلى المؤلفين كسلعةٍ تَسوؤني كثيرًا، نحن بشرٌ من لحم وعظام! ولسْنا آلات. كولت لديه شبابُه وجماله الشيطاني، الموهبةُ أيضًا، وبلا شك. روايتُه الثانية، السوداويةُ، والحزينة أكثرُ بكثيرٍ من سابقتِها. كانت رائعةً ومؤلمة، كان يُفترض أن أشعرَ بالغيرةِ منه، هذا الرَّجل الشاب.. أنْ ألعنَه، أن أتمنَّى خسارته، ولكنَّني قلتُها سابقًا، أنا أراه شخصًا لطيفًا، وأجدُ سعادةً كبيرة في الالتقاء به، ولكنْ ها هو ناشري يعلنُ الحربَ عليه.

وبينما كنت أدقُّ في مُحتويات مطبخي كي أعدَّ لنفسي عشاء خفيفًا، تلقَّيتُ رسالة تليفونية من فيكتوريا..

شكرًا لكلِّ ما تفعلينَه من أجلي، أنتِ كريمة وهذا نادر.

كلمة «كريمة» جعلتني أنفجرُ ضاحكة ضحكةً ساخرة. كريمة! يا لها من غبيَّة مسْكينة! ألم تشكَّ ولو للَحظةٍ أنَّ الكُتّاب يقتاتونَ من حيواتِ الآخرين؟!

(4)

«ليسَ علينا أبدًا خشية الكلماتِ إذا قبلْنا بالأشياء».

مارغريت يورسينار (1903–1987)

أليكسيس

ناشري يدْعى موريس، لا أعرفُ كيف تعاملَ مع هروبي، ولا كيف خرجَ من المأزق. تطالعني نظرتُه القاتمة، لحيتُه الصغيرة، معطفُه الرَّمادي، مازلتُ أشعرُ بعطْره الذي يحمل رائحةَ الليمون، وقبعةِ بناما[1]، التي كان يلبسُها في الصيف. كان بإمكاني الذَّهاب إلى البلدة حيث مكتبُ البريد، وداخلَ حجرة الهاتف أتصلُ به؛ فموريس لم يغيّر رقمَ هاتفه الجوّال. أستطيعُ أن أرسلَ له بريدًا، وأحكي له عن حياتي الجديدة في النّاحية الأخرى من العالم؛ في هذا المكان المفقود. أستطيعُ أن أصفَ له منزلي، عُزلتي، صُمودي، وأنْ أحدّثه عن كلِّ هذه الأيام التي أقضيها في كتابة كتبٍ لن يقرأها أحد.. الأيام التي لَا أسمعُ فيها صوتي إلّا لو همستُ لقطّطي بشيءٍ ما، لكنَّني أعرف أنّي من المستحيل أن أفعلَ ذلك.

تجاهلتُه.. لم أكترثْ به وهربت، لم أكلّفْ نفسي ولو عناءَ أن أرسلَ له كلمةً واحدة لإخباره بأني عزمتُ على الرَّحيل. ما الذي يمكن فعلُه حيالَ كاتبٍ يقرّر الاختفاء بينَ ليلة وضُحاها؟ كاتبٍ ناجح فوقَ ذلك! المثيرُ للسخرية -أيضًا- أنَّ حقوقي ككاتبةٍ تواصل في الازدياد؛ بما أنَّ كتبي مازالت تُباع دائمًا في كامل أنحاءِ العالم، ولكنّني أشاهدُ هذا كلَّه من بعيد؛ مُستشاري المالي يهتمُّ بذلك كله في باريس. الآن، لم أعدْ أسكنُ في فرنسا، وضرائبي أصبحت أقلَّ تلاحقًا، يبدو هذا مناسبًا له، أمّا أنا فلا أكترث.

---

(1) قبعةٌ عريضة وخَفيفة جدًا، مصنوعةٌ من القشّ، ومضفورة بأوراق الشجيرات الصغيرة.

مازلتُ أتذكَّر تعابيرَ موريس يومَ الْتقيتُه في مكتبه للمرَّة الأخيرة عامَ 2010؛ وجهٌ مَهزوم، أعطاني رسالةَ المحامين دونَ كلمةٍ واحدة.

شعرتُ بالدم يتجمَّد في عروقي، بعدَ ذلك فهمتُ مِن قبْل حتَّى أن أقرأ الرسالة، ولكنَّنا لا نستطيع الرجوعَ إلى الوراء، مِن المستحيل أن نرجعَ إلى الوراء.

اشتقتُ لموريس؛ إنه الشخصُ الوحيد في الوسطِ الثقافي الذي مازلتُ أفكِّر به باستمرار. في أيامنا هذه ليسَ من السَّهل أن تكونَ ناشرًا، أن تحارب ضدَّ هجمةِ العالم الرقمي، أن تقفَ مواجهًا لتناقص اهتمام القرّاء، ولإغلاق المكتبات. أتبادلُ أواصرَ الثقة معه مرَّة في الشهر، كان يَدْعوني للغداء في مطعم «الكلوزوري دي ليلاس»، يحدِّثني عنْ عمله، عنِ الكتب، وأنا أتقاسمُ معه كلَّ مخاوفي، فيشجِّعني ويُطمئنني بأنني الأفضل.

نجلسُ دائمًا على نفْس الطاولة، قريبًا من مدْخل المطعم، على يَسار الباب. مِن هناك بإمكاننا رؤية الجميع، ويستطيعون رؤيتَنا كذلك، وهو ما يدْعو موريس إلى الشُّعور بالفخر، كان يلبس أجملَ أطقمِه، ربطات عنقِه الأكثر تلوينًا، كنتُ أجد ذلك جميلًا، ولَطالما قدَّرت اهتمامَه. لم يكنْ موريس يفوتُ الفرصة عندَ دخول أحدهم إلى هذا المطعَم الشهير-حيث يقدِّمون الجعةَ أكثرَ من أيّ شيء آخر- ليوشوشَ لي بتعليقٍ ظريف عنْ هذا أو ذاك. كانت هنالك سنواتٌ كثيرة رائعة، الشمبانيا فيها تتدفَّق مثلَ الأمواج، الكتبُ تُباع من تلقاءِ نفسها، كم كان ذلك سهلَ الحدوث، لم أكنْ أتساءل وأقلقُ، وناشِري كان أكثرَ منّي، بدَا لنا أنَّ النجاح كان محكومًا بالدوام.

ثمَّ جاء اليومُ الذي احتلَّ فيه نيكولاس كولت مكاني الأولَ في قائمة الأعلى مبيعًا، لم يستطعْ موريس تصديقَ أو استيعابَ ذلك، لم تعدْ في رأسه سوى فكرة واحدة؛ أنْ تعود سيلاس إلى مكانها الأوَّل، وتتقدَّم

كولت. قلتُ له كثيرًا إنَّ الأمرَ ليس على قدرٍ كبير من الخطورة، وأنه لا يجب أن يزعجَه إلى هذا الحدّ، ولكنَّه لم يتزحزحْ عن موقفه.

سلَّط عليَّ موريس ضغطًا جهنميًّا لأسلمَه الرِّواية في الموعد الذي اتَّفقنا عليه تمامًا. لم يكن قد قرأ شيئًا من الكتاب بعْد، فقد رفضتُ إعطاءه النصَّ قبلَ الانتهاء منه بشكلٍ كلِّيّ، لم أفعلْها أبدًا من قبْل، ولكنَّه جعلني متوترةً بسبب قلَّة صبره وتلهُّفِه، حاولتُ أن أشرحَ له أنه يمنعني من الكتابة، أنَّ الكِتابَ سيكون أقلَّ جوْدة، لكنَّه لم يكنْ يريد سماعَ شيء.

بدأ موريس في مُهاتفتي يوميًّا ليسأل أينَ وصلت، عشتُ ذلك كلَّه على أنه مُضايقة كبيرة، إلى حدِّ أن تخاصَمْنا، وهدَّدتُّ بتركِه والبحثِ عن ناشرٍ آخر، في النهاية توصَّلنا إلى التوافق في «كلوزوري دي ليلاس»، حولَ كوبٍ من الشمبانيا.

في قرارةِ نفسي لم أكنْ مُقتنعةً كثيرًا بالكتابِ الذي كنت أحاولُ إنهاءه بمشقَّة. شعرتُ أنه عملٌ مخطَّط له، متَّفق عليه، وبلا أيَّة قيمة. قضيتُ كثيرًا من الوقت جالسةً إلى مكتبي أعيدُ كتابةَ فصول كاملة، محاولةً نفخَ شيءٍ من الحياة فيها، شيءٍ من الطاقة ومن القوَّة، هل فقدتُّ سِحري؟ هل نَضبتْ ريشتي؟ لماذا أصبحَ عليَّ أن أكدحَ لأكتب؟ كيف يُمكنني ألّا أخيبَ ظنَّ ملايين القراء في زوايا الأرضِ الأربعة؟ بدأتُ في تخيُّل تعابير وجْه موريس الآسفة، كيف سيستطيعُ الدفاعَ عن كتاب رَديء؟ روايةٍ لا تمتلك الرّوح، ولا الحيويةَ، ولا الأصالة!

صدرتِ الروايةُ حسبَ الاتفاق. روايةٌ ولدَت ميّتة. إبّان ظهورها في أواخرِ شهر أغسطس 2008، لاقتْ نجاحًا أكثرَ من مُتواضع، التفَّ حولها قلةٌ قليلة من القرّاء. هذا الكتابُ أزعجَ جماهيري، وقد كانوا على حقّ؛ كان كتلةً من أشياء مُزعجة، رغمَ الملصقات الإعلانية، الحوارات، وضعِها

في مقدّمة الكتب في واجهاتِ المكتبات؛ كانتِ المبيعاتُ ضئيلة. انتصرَ كولت، وعادَ ليكون رقمَ واحد، أمّا أنا، فبعيدًا في الخلفيَّة.

عشتُ فترةً مُذلّة بشكل مروِّع، لم أشعرْ قطُّ طيلةَ حياتي بالوحدة كما شعرتُ بها في تلك الأيام. اعتبرتُ موريس -الذي أصرَّ على نشْر هذه الرواية بأيِّ ثمنٍ دون أن يسمعني- مسئولًا عن ذلك، اعتبرتُ أصدقائي -الذين لم يعرفوا كيفيةَ مواساتي- مسئولين، والديَّ اللَّذين لم يقولا لي ما كنتُ أودُّ سماعه، أولادي الذين كانوا في الخارج ولم يدْركوا حجمَ معاناتي.. انغلقتُ على نفسي داخل المنزل، ورفضتُّ الردَّ على أيِّ اتصالٍ أو بريد. ازدادَ وزني ثماني كيلوغرامات خلالَ شهور قليلة، وانقطاعُ الدَّورة الشهرية لم يغير شيئًا.

صمدتُّ خلالَ كاملِ فصل الخريف، تحاملتُ على نفسي، حنيتُ ظهري لتمرَّ العواصف، تحمَّلت وكتمْت. أحتفظُ بذكرى رهيبةٍ عنْ تلك الفترة، ولكني عرفتُ الآن أنَّ هذه المعاناة زرعتْ بذورَ كلِّ أفعالي اللاحقة.

بسبب هذا الأذى الأبْكم وُلِدتِ البقيَّة.

****

أفكرُ دائمًا في مقهى لويندال، أستحضرُ ستائرَه البيج، وأثاثَه البرتقالي، الحفاوةَ التي يستقبلني بها صاحبُه، والذي يعرف جيدًا أنَّني لا أطلب سوى قهوةٍ بالحليب، موسيقى «اللاونج»، حركة المرور المستمرَّة في ساحة «كامبرون»، الشرفةَ في فصل الصيف، الحفيفَ الخفيف والخاصَّ الذي يصدره القطارُ الهوائي، هتافَ الأولاد الصِّغار في الميدان. ثلاثَ مرّات في الأسبوع يأتي رجلٌ ستّيني لشرب الشاي في منتصفِ الصبيحةِ مع أمِّه العجوز. كان ذا شَعرٍ رمادي فضي، يرتدي بدلاتٍ أنيقة جدًّا، عيناه

بنيَّتان، وبشرتُه داكنة ناعمة. أمّا هي فمُنتهيةٌ بسبب تقدُّمها الكبيرِ في السِّن، مجعدة، تلبس أطقمَ من ماركة شانيل تفوحُ منها رائحة النَّفتالين، وأيضًا عطر شانيل 5. أتذكّر تسريحةَ شَعرها الغريبة، أظافرَها المطليَّة، الخواتمَ الثقيلة في أصابعها النحيلة. كنتُ أحبُّ كثيرًا تأمُّلهما، تخيُّلَ حياتِهما، الرّوائيون يفعلونَ ذلك بشكلٍ رائع؛ تخيُّل حياةَ الآخرين!

كم يبْدو لي هذا بعيدًا جدًّا الآن.

أولادي مُقتنعون أنَّني يومًا ما سأعود لباريس، إنَّهم مخطئون! شقة شارع سوفران بيعَت، أتساءل أحيانًا مَن يعيش فيها الآن! أستحضر مكتبي المقابلَ للنّافذة البلُّورية الكبيرة المحتلَّة تقريبًا كاملَ الجدار، أتذكرُ نفْسي عندما كنت أكتبُ هناك تلك الرِّواية.. تلك الرواية الملعونة.

قدَّمت لي فيكتوريا الإشارةَ في شهر يناير من سنة 2009.

كان شتاءً قاسيًا جدًّا قد ضربَ باريس، كاملُ الحي أصبحَ أبيض، يرتدي معطفًا متينًا من الثلج. انتظرتها في مقهى لويندال. جسمي يرتعش، ويديّ حول كوبٍ من الشكولاتة الساخنة.

لاحظتُ فورًا أنَّ مظهري صدمَها بسبب كلِّ تلك الكيلوات التي اكتسبتها منذُ آخرِ لقاء لنا، أمّا هي فكانتْ دومًا برشاقةٍ خيالية، لم تلمِّحْ قطُّ إلى مَبيعاتي السيئة عن آخرِ رواية، ولا المقالات المفجِعة التي كتبتْ عنها، وشعرتُ أني مَدينةٌ لها بذلك. لم أكنْ أمتلك بدوْري الشجاعةَ للتحدث عنها، فقد أصبحَ موضوعًا محرَّمًا بالنسبة لي، هذا ما فهمَه أيضًا كلُّ مُحيطي، وناشري كذلك.

«أحضرتُ لكِ دفترَ ملاحظاتي، والحدثَ الذي أردتِ أن أكتبَه».

خرجَ صوتُها هادئًا ورصينًا، ولكنّي لمحت حزنًا في نظرتها.

«لقد تعبتُ حقًّا! وأعتقد أنني لم أخلقْ لأكونَ روائية، لا شيء سوى هذه الصفحات القليلة، كما ترين، وقد أخذتْ منّي شهورًا! أتساءل كيف تفعلينَ لكتابة كتاب، أنا مُعجبةٌ بك كثيرًا».

تركَّزت عينيَّ على الدفتر، نسيتُ البردَ.. الثلجَ.. السماءَ الرمادية، وحُزني الشديد. لم أعدْ أرى سوى كتابتها، خطّها الرقيق، المائل والأقرب لأنْ يكون لطالبٍ في المدرسة، وكلماتها.

في الدَّفتر اكتشفتُ شخصيَّتين؛ رجلًا شاعرًا، بائسًا ومعذَّبًا، يمكن أن يشبهَ دييغو. وبطلة شقراء، رقيقة، مهندسة معماريَّة؛ وهي فيكتوريا نفسها. أتذكَّر أني قرأتُ تلك الأوصافَ بانتباهٍ شديد، كما لو أنَّ ذاكرتي أخذت صورًا لكلِّ شيء؛ عيوبهما، مميزاتهما وروائحهما.

تمثَّل الحدثُ في خلاف، وقد بدَا واضحًا أنه الخلافُ الذي انتهت بسببه علاقتُهما. كان مكتوبًا بشكل جيّد، بأسلوبٍ رشيق، وبطريقةٍ عاليةِ التأثير. الراويةُ تلوم الشاعرَ على أنَّه لم يحبّها، وأنه كان قليلَ الحضور في حياتها، هوَ لا يحتمل مدى «التصاقها» به، وتقييدها حريتَه.

بينما أقرأ، شعرتُ بمتعةٍ خفيَّة في النظر عبرَ ثقبِ القفل، في التجسُّس على خصوصيات عاشقين لطالما سَحَراني، لقد كانَ انطباعًا فريدًا ومألوفًا في نفس الوقت، كما لو أنَّني كنت على درايةٍ مُسبَقة بكلِّ ما كان بينَهما من تفاصيل، كما لو أنَّه لا أحد يمكن أن يضيفَ شيئًا لمعلوماتي عنْ علاقتهما. يلتهمُني رغمَ ذلك فضولٌ خطير. كنتُ مثل مُسترقٍ نَظر، ثمل بمشهدٍ جنسيّ ولا يعرف أبدًا كيف يتوقَّف.

إنَّه ذلك اليوم في مقهى لويندال، بينما الثلجُ يتساقط ببطء في الخارج، وفيكتوريا مركزة نظرتها الرماديةَ الممتزجةَ بخضرةٍ فاتحة عليَّ، عندما عبرتِ الفكرةُ عقلي للمرَّة الأولى.

الفكرةُ التي ستقلبُ كلَّ شيء.

(5)

«الأشخاصُ الذين يسافرون.. هُم لاجئون دائمًا».

دافني دو موريي (1907–1989)

الطقسُ على هذه الجزيرةِ الواقعة في أقاصي العالم حيث أعيشُ حاليًا؛ صيفٌ دائم، تسودُه نَداوة اسْتوائية، غامرةٌ، مُفعمة بالطيوب النَّضرة العابقة. لم ألبسْ قطُّ معطفًا أو شالًا أو قبَّعة منذ سكنتُ هنا. لم أعد أعرف مطلقًا معنى البرد. من وقتٍ إلى آخر كنتُ أستقلُّ الدراجةَ الهوائية إلى البحر، وهناك أقضي كاملَ اليوم، أسبحُ بعيدًا ولوقتٍ طويل، إلى الحدِّ الذي تؤلمني معه أطرافي. منذُ ثلاثة أعوام -وبفضْل السباحة وسياقة الدراجة- أصبحَ جسمي مشدودًا، وبرزتْ عضلاتي، تحول لونُ بَشْرتي اللبنيُّ إلى عنْبريٍّ[1].

بعضُ الأطفال يلعبونَ معي، ويطلبون منّي إطلاقَ طائراتهم الورقية، يجعلونني أتذكرُ أولادي الحقيقيّين، البعيدين جدًّا، وأحفادي الذين لا أعرفُهم جيدًا، ما الذي يعرفونَه عن جَدَّتهم؟ الرِّوائية التي وقعتْ في حُفرة العار، تلك التي لن تنشرَ أيَّ كتابٍ بعد الآن.

في يوم من الأيام، ربَّما وإذا ما أوتيتُ الشجاعة أو القوة، سوفَ أحكي لهم قصةَ فَيكتوريا، حتى يعرفوا الحقيقةَ من أجل ألا يصدِّقوا ما كُتبَ عنّي من مقالاتٍ مَليئة بالمرارة في الجرائد التي يمكن أن يحتفظَ بها آباؤهم.

---

(1) لونٌ يقع بينَ الأصفر والبرتقالي مشتقٌّ من اسم لوْن مادة العنبر.

قد أفسِّر لهم أنني رحلتُ لأنَّه لم يعدْ بإمكاني تحملُ كلِّ ذلك التَّشويه والافتراء أكثر، وكلِّ الأهوال التي صبّوها فوْقي، فقد انقضَّ الصحفيّون على الحادثة مثلَ طيورٍ جارحة، داسوا على حياتي، وسَحقوا شرَفي، هي مَن خطَّطت لكلِّ هذا؛ هي.. فيكتوريا.

****

يواصل الثلجُ التَّساقطَ حتَّى في الساعات المتأخِّرة من الليل. في هذه الأشْهر الأولى من عام 2009 في شارع سوفران، أكتبُ كما لم أكتبْ منذُ زمنٍ بعيد، الكتابُ يأخذ منّي، أستعيدُ: مراسمَ دفن دييغو، المقبرة، السماواتِ الرمادية. أستحضرُ صدمةَ موْته، عندما اتَّصل بي أحدُ أقرب أصدقائه وأعلنَ لي الخبرَ بصوتٍ مُنكسر، أعيش آلامَ الإجهاض من جديد، ذلك الفصلُ الذي رغبت بإغراقِه في أعْمق نقطةٍ بداخلي.. «لا أريد هذا الطفلَ يا دييغو، يجبُ أن تفهم، عندي ولدان، سنّي يزيد عنِ الأربعين، لا أمتلكُ الشجاعةَ لأكون أُمًّا من جديد، حتَّى لو كان ذلكَ من أجلك». بصقَ هذه الكلماتِ في وجهي، بجنونٍ وألم: «حتَّى من أجلي! ولكنِ انْظري لنفسِك غابرييل، انْظُري لأنانيتك، هذا الطفلُ لي أيضًا؛ إنَّه طفلي، لا أستطيع حملَه في أحشائي؛ فقط لأنّي لستُ امرأة! ليس من حقِّك قتله، ليس شيئًا؛ إنَّه طفل، هل تسمعينَ يا غابرييل، طفل، طفلي!» تمسَّكت بموقفي، حتى لو كنت أحبُّ دييغو حبًّا مجنونًا وهائلًا، فأنا لا أريد طفلًا آخر، ذهبت وحْدي لأجهض، أمّا دييغو فقد طار بعيدًا، لم يترك أيَّ شيء متعلِّقٍ به في الشقة التي كنّا نسكن فيها معًا، قريبًا من شارع «لورمال»، قطع الجسور، ولم أتلقَّ عنه أيةَ إشارةٍ لإعادة إحياء ما كان. حاولتُ الاتصالَ به، كتبتُ رسائل، ولكن بلا جدْوى.

أفكرُ كثيرًا بذلك الطفل الذي كان سيكونُ له من العمر عشْرُ سنوات اليوم. طفلُ دييغو الذي لم أوافقْ على إبقائه، كان ولدًا أمْ بنتًا؟ هذا الكائنُ الصَّغير الذي يستبدُّ بي الآن.

الكتابةُ عن دييغو تحرّرني، تفتَح صماماتٍ لبثْتُ لوقتٍ طويل مقفَلَة، لم أجرؤ طيلةَ حياتي أن أكتبَ عنْ شيء شخصيّ وبمثْل هذه الحميميَّة.. لحماية نفسي، وبحياءٍ شديد، جعلتْ منه مغنّي روك، أمّا أنا فقدِ انزلقتُ في ذات أمينة متْحف، ولكنْ كلُّ الباقي كان نحن، لقاؤنا الأوَّل، شغفنا الجنوني، لقاءاتنا الجنسيَّة الليلية، إفراطنا، ثمَّ الطفل، الإجهاض، الانفصال، توقَّفتُ عند موته، كنتُ أنا مَن يموت في الرّواية وليس هو.

كتبتُ هذا الكتابَ مثل مَمْسوسة، مُلتصقة بمكتبي ليل نهار. لم يعدْ لأيّ شيء قيمة بالنسبة لي، حتَّى الربيع الذي عاد، موريس يتساءل عمّا يجري معي، أصدقائي -أيضًا- لم أعطِهِم أيَّ تفسير. تركتْ لي فيكتوريا رسالةً نصيَّة على هاتفي، كانت مُسافرة وتفكرُ بي، وتقول -أيضًا- إنَّها لم تستطع التقدمَ في روايتها، لم ألقِ لذلك بالًا، كنتُ قد بدأت أبصرُ نهايةَ روايتي، مثلَ بحّار يرى من بعيدٍ اقترابَه من اليابسةِ بعدَ سفر طويل. أصبحتِ الروايةُ كلَّ عالمي، وكوكبي الذي أدور حوله.

عندما صدرَ الكتابُ في شهرِ أغسطس من عام 2010، تحتَ عنوان: «مترو لورمال»، كان كما لو أنه ممسوسٌ بالبركة؛ اختارتْه المكتباتُ بثقة، وتخاطفَه القرّاء، الصحافةُ تفيض بعواطف المدْح والحماس، أعلنوا في كلِّ مكان أنَّ غابرييل سيلاس استطاعتْ أن تُنجِح عودتَها، استحوذتْ على مكانِ نيكولاس كولت الأوَّل، الذي -ولأنَّه مُنافسٌ ذكي- دَعاني للغداء في مطعم «ميديتيراني» في ساحةِ «الأوديون»، الذي كان مُزدحمًا بكلِّ أعضاء دار النَّشر؛ للاحتفالِ بنَصري، حملني نجاحُ الرواية بعيدًا حيث لم يكنْ باستطاعة أيِّ شيء أن يصلَ إليّ.

عندما أعيدُ التفكيرَ بتلك الفترة، أجدُ نفسي في غاية السَّذاجة، ومُغفَّلةً جدًّا. لم أرَ أو أحدس أو حتى أتوقعْ شيئًا من الكارثة التي سوف تدمّرني. بعد وقت قصير من ظهور الكتاب، قرأتُ اسم فيكتوريا فوق الرسالة التي سلمها موريس لي بمكتبه، كانت تقاضيني بتهمة السرقة.

لم أفهمْ شيئًا في البداية. نظرتُ إلى موريس الذي كان مصْعوقًا وصامتًا. ثمَّ قال بهدوء:

«أجيبيني غابرييل، هل استلهمتِ روايتَك فعلًا من مخطوطةِ هذه المرأة؟».

غَزاني نوعٌ من الرُّعب المجمَّد، ما الذي يريد قولَه؟ أيُّ مخطوطة؟ لم يكن ثمَّة مخطوطة من الأساس، فقط بعضُ الملاحظات غيرُ المفهومة والتي لم أستعملْها مطلقًا في شيء. أعطاني موريس وثيقة أخرى، عشْرون صفحة موْصولة، وعليها ختمٌ من مؤسَّسة الكتّاب والمؤلِّفين المسرحيّين؛ إنها نوفيلا، تشبه بشكلٍ غريب «مترو لورمال»، كما لو أنها نسخةٌ ملخَّصة عنها. لقد حملت هذه النسخةُ كلَّ شيء، كلَّ مكوِّنات كتابي، اللقاء الحارّ بينَ رجلٍ وامرأة، الطفل، الإجهاض، الانفصال، شقة شارع «لورمال»، التفاصيل الرّومانسية والحميمية، كلمات الحب، الشغف، ثمَّ الخصام، الاستياء وخيبة الأمل..

شعرتُ بالعجز عن نطقِ أيّ كلمة.

«ولكنْ هي مَن سرقتني! (قلتُ أخيرًا بفزع)، كيف بإمكانِها أن تتجرَّأ على ادِّعاء العكس؟ هي مَن نسختْ مترو لورمال يا موريس، لقد نسخت كلَّ شيء».

رنَّ صوتُ موريس بتردُّد وقلق: «هذا التلخيصُ عبارة عن وديعةٍ يا غابرييل، إنَّها الدليلُ لإثبات وجود الكتاب في تاريخٍ معيَّن، لقد أودعتْها

فيكتوريا ساندیرس في مؤسَّسة الكتَّاب والمؤلِّفين المسرحيّين بتاريخ 15 أبريل 2008».

تاريخ 15 أبريل 2008!

أسبوعان قبلَ لقائي الأوَّل بفيكتوريا في مايو 2008 على المقعدِ الخشبيّ في شارع لويندال.

جفَّ فمي تمامًا. اعْترتني دوخةٌ قوية، وشعرتُ بانسدادٍ في حلقي، بدأت يدي في الارتعاش، وبتُّ عاجزةً عن التنفُّس.

كيف سأشرحُ هذا كلَّه لموريس؟ بماذا سأبدأ؟ لم أستطع قطُّ التكلم، لم أكنْ قادرةً على إخراج كلمة واحدة، شعرت أني أقفُ على شفا كارثة، وأنَّني أترنَّح لبعض الدقائق، محاولةً بيأسٍ التمسُّكَ بأيِّ شيء.. بأيِّ أحد، حتى لا أسقط في الهاوية.

ولكنْ لم يكن ثمَّة شيء أو أحدٌ ليمسكني.

****

لستُ تعيسةً هنا، الطبيعة تتَّسم بالترفِ، والأشخاص مضْيافون، أعيشُ وأكتب على إيقاع القمر، الشمس والغيوم.. لا أشعرُ أني وحيدة؛ القطط والكتب رفاقٌ رائعون. أشتاقُ قليلًا للحبِّ، ولكن ما أشعرُ أنه ينقصني أحيانًا -في المساء، وعندما أضعُ قارورةَ شراب فاتحٍ للشهية أمامي- هو وجودُ صديق، حبيب، رجُل.

وجدتُّ متَّسعا من الوقتِ منذُ انتقالي لهذا المنفى، للتَّفكير بالطريقة التي استطاعتْ بها فيكتوريا تحضيرَ ذلك المخطَّط الشيطاني. كلُّ شيء أصبح الآنَ واضحًا لا محالة، كيف لم أطرحْ على نفسي مطلقًا أيَّ سؤال، لم أشكّ أبدًا في أيِّ شيء، كم ضحكتْ في قرارةِ نفسِها من سذاجتي!

ولكنّي تساءلت بلا كَلل: لماذا؟ نعم.. لماذا بذلتْ كلَّ هذا الأذى لتنفِّذ خطتَها؟ لماذا غذَّت هذه الكراهيةَ تجاهي؟ كانت تمتلكُ الجمالَ والشباب، كانت تمتلكُ كلَّ شيء، لماذا إذًا؟!

بعدَ رحيلي المسْتعجِل في 2010، عملًا بنصيحةِ محاميّ، لم أبحثْ عن معاودة التواصل مع فيكتوريا، حالَ انتهاءِ المحاكمة في القضية المدوِّية التي خسرتُها. ومعَ استمرار تَبعات الفضيحة، ومقالات الصُّحف بعناوينِها العريضة المفْزعة، والتي لن أنساها أبدًا؛ لم أشعرْ إلّا بضرورةٍ وحيدة: الهرب.

الهربُ من بلدي، الهربُ من تلك المرأة، الهربُ من كلِّ شيءٍ مُلتصق بجلدي منذُ تلك الحادثة، الهربُ من كلِّ أولئك الذين يفكِّرون أنّي سَرقْت.. نَهَبت.. نَسَخْت.

معَ أنَّني لم أفعل شيئًا غيرَ وصف دييغو، كتابة دييغو، حبيبي دييغو.

لم أعدْ أردُّ على الرسائل المبعوثة من ناشِري أو أصْدقائي المقرَّبين. موريس يتوسَّلني أن أخبره عن أحوالي، أقرأ الرسائلَ ثمَّ أضعُها جانبًا. بعدَ وقت توقَّفتِ الرسائل، ومنذُ ذلك الوقت استمرَّت حياتي في هذا المنفى اللَّطيف والبعيد. الأيامُ تمرُّ وتتشابه.

البارحةُ صباحًا، وبينما كنتُ في السوق، في الجهةِ الأخرى من الساحة، صدمتُ لرؤيتي رجلًا يشبه موريس؛ رجلٌ كبير أسمر، ظهرُه محنيٌّ بعضَ الشيء، ويعتمرُ بناما. توثَّب قلبي من مكانِه، حاولت تتبُّعَه ولكنَّه اختفى، لا يمكن أن يكون ناشري بالـتَّأكيد، مستحيل، لا أحد يعرف عنواني هنا، باستثناءِ أولادي ومُستشاري المالي، وهؤلاء مِن المستحيل أن يكشفوه لأحد، لقدْ أخطأت وهذا كلُّ شيء.

في مناسباتٍ عدَّة، وأثناءَ جولتي بعد الظهر، لمحتُ هذا الرجل، وفي كلِّ مرةٍ تقع فيها عيناي عليه أتفاجَأ من جديد، كأنَّ جسدي كلَّه يقول لي: انْظري يا غابرييل، إنَّه موريس! كنت أصرفُ مبتسمةً هذه الأفكار.

في نفْس مساء ذلك اليوم، عندما كنتُ أحاول الاستمتاعَ بأشعَّة الشمس الأخيرة على شرفتي، رنَّ جرسُ المنزل القديم، لم يكن يرنُّ أبدًا لأن لا أحدَ يأتي لزيارتي. جلجلةٌ صدئة وغريبة، قفزتُ عند سَماعها، والقططُ مثلي.

كان هنا، واقفًا على العتبة، قبعةُ البناما بينَ يديه، ناشري، ابتسامتُه، عيناه البنيّتان، وعطْره الذي برائحة الليمون.

بدون كلمة، ارتميتُ بينَ ذراعيه، تلألأتِ الدموعُ فوق رموشي، لقد اشتقتُ إليه كثيرًا.

«أخذتُ العنوان من ابنك، (غمغم)، ظللتُ وراءه حتى انفجر».

بعدَ ذلك تراجع خطوةً إلى الوراء ليتأمَّلني..

«يا إلهي، كم أنتِ جميلة يا غابرييل!».

ضحكتُ رغمَ انفعالي العاطفيّ بسبب رؤيته من جديد.

«أنتَ مجنون! لقد تغيَّرت إلى الحدِّ الذي لن يستطيع أحدٌ معه التعرفَ عليَّ!».

«بل إنَّكِ رائعة، مضيئة».

بعدَ وقت، جالسًا على الشرفة، وكأسٌ من النبيذ الأبيض بيدِه، مقابلًا للجبال الخضراء والسماء الزَّرقاء، للبحر المتلألئ من بعيد، بصمتٍ تام، مسحورًا بما يرى؛ قال مِن خلال ضحكةٍ صغيرة:

«كم هو جميل منْفاك، بعيدٌ بعضَ الشيء فقط ربما».

تدور القطط مُتفاجئةً بزائرِ المساء هذا، الذي يتشمَّمونه بحذر.

«جئتُ لأحدِّثك حول فيكتوريا ساندیرس». قال موريس.

«هذا شيءٌ من الماضي يا موريس، لا تقلْ لي إنك تكبَّدت سفرَ اثْنتي عشرة ساعة في الطائرة لتحدثني عنها؟».

«الثلاثةُ أعوام التي لم أركِ فيها سمحتْ لي بأنْ أفكر، عندما انفجرتِ الفضيحةُ لم أكن أصدقُ عينيّ، أنتِ تسرقين أحدًا! هذا سخيف، لا يصدَّق، ولكنْ عندما قرأتُ تلك النوفيلا لم أعد أشكُّ في الأمر مُطلقًا؛ كانت قريبةً جدًّا من كتابك، ثمَّ خسرنا القضية، وأخذتْ فيكتوريا ساندیرس تعويضًا ماليًّا، هل تذكرين، واستطعتُ أن أتدبَّر أمري مع المحامين حتى لا تُكتَب ملاحظة تتعلَّق بالمسألة، أو إشارة داخلَ مترو لورمال، الآن عرفت أنه كان عليَّ أن أتصرفَ بطريقةٍ أخرى، كأنْ أجبرك على التكلُّم، أنْ أساندكِ، ولكني تركتُ نفسي نهبًا لوسائل الإعلام ومَتاهاتها اللولبيةِ التي جرَّفت كلَّ شيء، لأنه بالفعل يا غابرييل كلُّ الناس أصبحت تريد قراءةَ الرِّواية التي سرقتِها، العالمُ بأكمله ارتمى على هذا الكتاب الذي تحكينَ فيه عن دييغو حبيبِك، مازال يُباع حتَّى الآن، مبيعاتُ الطبعة ذات الحجم الصَّغير وذات الحجم الكبير وصلتَا إلى القمَّة هذا الصيف، لم تغادري قطُّ قائمةَ البيست سيلر».

تنفَّستُ بهدوء ونظرتُ إليه، تذكرتُ وجبات الغداء التي تناولناها معًا في مطعم «كلوزوري»، ربطات عنقِه الأنيقة، بدلاتِه المنتقيةَ بعناية، فقط مِن أجلي، ثمَّ سألت:

«ما الذي تحاول قولَه لي يا موريس؟».

«جئتُ لإعطائكِ هذا».

كان ظرفًا مغلَقًا كتبَ عليه: (غابرييل سيلاس، إلى عناية السيد ناشرِها، تُسلَّم لها شخصيًّا).

«يجب أن يكون مهمًّا جدًّا لتقوم بنصفِ دورةٍ حول العالم لتجلبَه لي».

«نعم فعلًا، إنَّها والدةُ دييغو مَن كتبتْ لكِ هذه الرسالة، واستأمنَتْني عليها قبلَ ثلاثة أيام».

أخذتُ الظرفَ بيدٍ مُرتعشة وبدأت في فتحِه.

عزيزتي غابرييل،

لم نتقابلْ منذُ جنازة دييغو، ولكني استمررتُ في قراءة رواياتك، ومتابعتكِ في الصحف، قرأت بالطبع مترو لورمال، الروايةُ زلزلتني حيث عرفتُ فيها أنك تتحدَّثين عن ابني، وعنكِ أيضًا، وعن قصة حبِّكما، ولكن إذا كنتُ أكتب لكِ اليوم فذلك لأحدِّثكِ عن تلك المرأة التي اتَّهمتكِ بالسرقة، والتي ربحتِ القضيةَ التي رفعتها ضدَّك، هذه القضية التي أرغمتكِ على الهرب من كلِّ فرنسا، أنتِ لم تسرقي شيئًا، ويجب أن يُعرَف هذا، منذُ أسبوعين كنت أرتِّب العليّة، كانت مليئةً بالأوراق والأرشيف، وأشياء أخرى كثيرة تخصُّ دييغو، من ضمنِها وجدتُّ رسالة قصيرةً مبعوثة من امرأة تدعى فيكتوريا ساندرس، أرسلتُها لكِ مرفقةً برسالتي، أظنُّ أنها ستكون مفيدةَ لكِ، تركتُ لنفسي نسخة منها وبعثتُ لك الأصل.

أتمنَّى لك حظًّا سعيدًا، وأنتظرُ مثلَ الآلاف من قرّائك عودتَك بروايةٍ جديدة.

محبَّتي،

السيدة: ج.ب.

كتبتْ رسالةُ فيكتوريا على ورقةٍ بيضاء، وتعرَّفت فورًا على خطِّها الرفيع والمائل.

23 أبريل 2004

دييغو،

تتركني إذًا، تقرِّر الرحيل! حسنًا، ولكن خذْ معك مُكابرتك وأعذارَك السَّخيفة، على أيِّ حال أيًّا كان ما ستقوله.. أيًّا كان ما ستفعله؛ لن تحبَّ أبدًا سوى غابرييل، خلالَ الأشهر القليلة لمغامرتنا، لم يكن على فمِك غير اسمها، لا تتحدَّث إلا عن عشقِكما في ذلك الحيّ في شارع لورمال.. إلّا عن ذلك الطِّفل الذي لم تقبلْ وهبَك إيّاه، ألعنُ تلكَ المرأة التي لم تعرفْ كيف تجعلُك سعيدًا، والتي منعتك من أن تحبَّني، أنا.. سوف أجعلها تدفع ثمنَ هذا يومًا ما.

وداعًا،

فيكتوريا.

وضعتُ رسالة فيكتوريا على الطاولةِ قربَ زجاجة النَّبيذ الأبيض والكؤوس، موريس صامت، وأنا أيضًا، ولكنه كان صمتًا ممتلئًا وغنيًّا.. غنيًّا بالوعود، وبالنور، غنيًّا بالأمل، صمتًا يحضن بداخله رواياتٍ قادمة، ودربًا لأجدَه.

ديديه دايدينكس

ديدييه داينينكس، من مواليد 27 أبريل 1949 في سان دوني، هو كاتبٌ فرنسي ومؤلفُ رواياتٍ بوليسية وقصص قصيرة ومقالات. كتبَ أعمالًا تلفزيونية كثيرة أغلبُها بوليسية، كما تحوَّلت كثيرٌ من قصصه ورواياته إلى أفلام. كتبَ -أيضًا- للأطفالِ واليافعين، والأفلام الكرتونيَّة. في رصيده أعمالٌ كثيرة ومتنوِّعة تزيدُ عن الخمسين عملًا. تحصَّل على عدةِ جوائز، أهمها:

- جائزة أفضل رواية عام 1984.
- الجائزة الكبرى للأدب البوليسي لجرائم القتل عام 1985.
- جائزة النقاد في أدب الغموض عام 1987.
- جائزة أوجين دابيت للرواية الشعبية 1990.
- جائزة غونكور لكتاب الأطفال 1998.
- جائزة غونكور للقصة القصيرة 2012.

عيدُ الزِّفاف الذَّهبي

تتحوَّل بعضُ النساء -في بعض الأحيان- إلى دمًى، كلُّ ما نملكه تجاهَهنَّ هو الرغبةُ في اقتلاع أذْرعهن.. أعينهنَّ، وفصْل رؤوسهن. تحابًّا طيلة شهور، ولعبًا ببراءة شديدة الدورَ الذي أوكل إليهما مِن أجل إرضاءِ العائلات، ولكنْ -ومنذُ الليلة الأولى- كان هذا ما فكر به بالضبط تجاه المرأة التي شاركتْه الحياةَ طيلة خمسين عامًا حتى الآن.

لا يفكِر سوى في كيفيةِ تقطيع أعضائها، ونثْرها كما لو أنَّها قطع ميكانو[1] مُبتذَلة. كانت الأيامُ مليئة جدًّا بالروتين؛ ممّا وفَّر له وقتا كثيرًا لوضْع مؤامراته، ثمَّ يأتي الليلُ الذي يقضيه فاتحًا عينيه حتى آخرهما، تحدقانِ في الشياطين التي تتوالَد من الظلمة. كان مُستمتعًا بنصفِ القرن الليلي هذا الذي أمْضاه في التخيُّل والحلم بالألفِ طريقةٍ للتخلُّص منها. لقد أخذتْ مكانَ الضحية في جميع أفلام التليفزيون التي شاهدَها، وجميعِ الكتب البوليسية التي قرأها، وكلِّ أخبار الجرائم التي جمعها في قصاصات.

لا يتذكرُ بالرغم من ذلك أنه رفع يدَه عليها في أيِّ يوم من الأيام، أو قال لها أيَّ كلمة جارحة. كان -عِوضًا عن ذلك- يُبدي لها المجاملات، يرسلُ لها الابتسامات، بينما في عقله كان يغزلُ بصبرٍ عديدَ الفخاخ التي لا يمكن أن يتوقَّعها أحد. حولَهما، كانتِ الكوارثُ ما تزال مستمرَّة في الحلول على كلِّ الأزواج؛ طلاق، قضايا مَحاكم، خيانات، يشمل هذا حتى طفليْهم اللَّذين أعطاهما بدوْرهما ثلاثة أضعاف عَددهما من الأحفاد، إناثًا وذكورًا، اتَّفقا على أن يظهرَا لهم كمثالٍ نموذجي على النَّجاة بزواج ناجحٍ يمثِّل الزمنَ القديم السعيد.

---

(1) لعبة بناءٍ وتركيب مثلَ الليغو، تعتمدُ على عناصر معدنيَّة بالكامل.

كان يحتفظ سرًّا بدفترٍ صغير أخفاه تحتَ عجلة الاحتياط في صندوقِ سيارته، حيث كان يسجّل كلَّ سيناريوهاته؛ الحوادث، الانتحار المزيَّف، التسمُّم، الإصابة بالجراثيم..، بقيَ كلُّ شيء في مرحلة الأفكار. وفي هذه الأيام القليلة فقط -التي تسبقُ احتفالَهما بعيد زواجِهما الذهبي- تساءل بمرارة عمّا إذا كان النجاحُ الظاهر لزواجهما لم ينتجْ عن هذه الخيالاتِ القاتلة اللانهائية التي سادتْ لياليه على مَدار أعوام، ومن ثم تصبحُ تلك الفكرة غيرَ مُحتملة بالنِّسبة له لأنه ترك للأحلام والخيالاتِ امتيازَ توجيه حياته.

استولى على المنزل جنون التحضير للحفل الذي سيبدأ بعد قليل، أثناء ذلك أعاد قراءة جميع ملاحظاته، قبل أن يسجل بالحبر الأحمر أنه ليس لديه أي سبيل للتأكد من ذلك سوى بالمرور إلى الفعل.

وجدَ أن تكرَّرَ ليلة الزواج، بمسافةِ خمسين عامًا، تفرض بشكلٍ ما رمزًا في اختيار التاريخ.

انشغل الأبناءُ بالترتيب للحفل، ومثل نصف قرنٍ مضى، كانت العائلات قد اجتمعتْ في موكبيْن مُختلفين باتّجاه مبنى البلدية؛ هو في سيارةٍ يقودها ابنُه، أمّا هي فقد كانت تقود بنفسِها سيارةَ الزوجين لأنَّ ابنتها لم يكن لديها رخصةُ قيادة.

ذهبتْ زوجته في تقليدِ يوم الزفاف الأوَّل إلى حدِّ فرض ما يقاربُ الساعة من التَّأخير، على رئيس البلدية والشهود، كما حصلَ في السابق. ولتبرير نفسِها، قامت بالتبجُّح بطريقةٍ غير لائقةٍ مُدَّعية أن ثقبًا حدثَ في عجلة السيارة.

في جوفِ الليل، وبعدَ الانتهاء من الواجب الزوجي، أزاحَ الغطاءَ عنه، والتفتَ إليها ليتوسَّل إليها كي تسامحَه، وهو على أتمّ الاستعداد للاعتراف.

لمعَ فجأة بريقٌ من ضوء القمر على سطح السِّكين الذي رفعتْه في وجهه، بعدما سحبتْه من تحت السَّرير. بعينيْن جاحظتيْن، تدورانِ بذعرٍ في المكان، دفعتِ النَّصلَ ثلاثَ مرّات داخل قلبه.

بعدَ بضعة شهور، برّأتها المحكمةُ عندما قدَّمت للقاضي الدفترَ الصغير، المليء بالملاحظات الحمراء، والذي عثرتْ عليه في صندوق السيارة حيث اكتشفتْه بالصدفةِ وهي تغيّر عجلةَ السيارة المثقوبة في الطريق إلى البلديةِ في يوم الزَّواج الذهبي[1].

(1) الزواج الذهبي: الاحتفالُ بمرور خمسين عامًا على الزواج. بعضُ الأزواج يحتفلون به مِن خلال إقامة حفل زواجٍ جديد.

بيار آلان غاس

بيار آلان غاس، قاصٌّ وروائيٌّ فرنسي، ولدَ عامَ 1947 في بوسك - رونولت، يكتبُ باللُّغتين الإسبانية والفرنسية. درسَ اللغةَ والآداب الإسبانية، وتحصَّل على شهادة الدراسات المعمقة سنة 1971. اشتغلَ في مهنة التعليم الثّانوي ثمَّ انتقل إلى تدريسِ الأدب في الجامعات والمعاهدِ العليا للدِّراسات التحضيرية. عامَ 1981 تعرَّض إلى حادثٍ صحيّ دفعَه إلى كتابة أولى رواياته. عامَ 1995 كتب قصتَه الأولى، وعامَ 1998 أسَّس موقعَ القصص الشهير «قصص، قصص»، وهنا أهدى لجمهور القصَّة مساحةً كبيرة لقراءة كلِّ نصوصه التي تجاوزت الـ150 باللغة الفرنسية والإسبانية، كما يحوي نفسُ الموقع نصوصًا لغيرِه من الكتّاب من جميع أنحاء العالم. منذُ تقاعده عامَ 2007 وحتَّى الآن وهو متفرغٌ للأدب. صدرتْ له حتَّى اليوم 5 مجموعات قصصية، وعددٌ من الروايات.

تحصَّل عامَ 2005 على الجائزة الأولى للنَّص القصير التي تقيمُها المؤسسةُ الثقافية «باستت» عن قصته القصيرة: «هل قلتُ لكم؟». وحازَ عدةَ جوائز أخرى، من بينها جائزةُ أفضل مجموعةٍ قصصيَّة عن مؤسسة ورشة الفنون سيرفون فيلان عامَ 2015 عن مجموعته: «حبُّ الورق».

هل قلتُ لكم؟

أصْدقائي الأعزاء،

كنت أريدُ منذُ وقت طويلٍ إرسالَ هذه الرسالة وهذه الصورةِ التي التقطتُّها من نافذتي للبُحيرة في وضَح النهار، لكنَّني للأسف لم أنجحْ في ذلك. رسالتي، أقصد المسوَّدة الأولى التي كتبتها، كانت هنا في مكانٍ ما من هذه الآلة التي تربطُني بكم، ولكنْ أين؟ لم أكنْ أعرف! ثمَّ حدثتْ معجزةٌ هذا الصَّباح، فقد وجدتُّها حيث ينبغي أن تكون، وها أنذا قدْ أتممتُها تمامًا في الوقت.

منذُ آخر تغيير، (لا تسألوني ما هو)، بقيتْ هذه الآلة متصلةً بكُم بشكلٍ دائم، غير أني فقط في بعضِ الأحيان لا أفهم ما كتبتُه في اليوم السابقِ أو الذي قبله؛ لذلك أعودُ له فيما بعد، وهذا سببُ عدمِ إسراعي في الكتابة.

استغرقَ منّي هذا أيامًا وأيامًا حتى تمكَّنت من إيجاد كلِّ عناوينكم البريدية الإلكترونية، ووضْعها في خانةِ المُرسَل إليه، ثمَّ إدخال الصّورة؛ لأنّي لا أحبُّ طلبَ المساعدة من أحد، استغرقتُ وقتًا طويلًا أيضًا لتحرير الرّسالة في المسوَّدة، الموضوع: رسالة إلى أصدقائي، لا أخصصُ لعمل ذلك إلا قليلًا من الوقت كلَّ يوم. وكلُّ يوم أقلُّ مِن الذي سبقه، رغمَ الدفتر الذي أسجِّل فيه كلَّ ما يجب عليَّ القيامُ به. بعدَ الإفطار وضعتُكم في قائمة أعمالي: «الكتابة لأصدقائي». وعلى ورقةٍ أخرى، سجَّلت -بالتَّفصيل- كلَّ ما يجب القيامُ به لفتح البريد الإلكتروني. دونَ ذلك، أقوم غالبًا بالقفز على إحدى المراحل، وبالتالي لا أتوصَّل لفعل شيءٍ فعلًا، أو أنْسى تمامًا في أيِّ مرحلة أنا؛ فأتركُ كلَّ شيء.

كلُّ ما كان سهلًا بالنسبة إليَّ في الماضي أصبحَ معقدًا جدًّا الآن.

ولكن اليوم، وحتَّى هذه اللحظة، كلُّ شيءٍ يسير على ما يرام.

تخلَّصتُ حاليًا من كلِّ همّ مادي: أولادي يتحمَّلون مسئولية حياتهم، وسيدةٌ تقوم بدور المرافقة والممرِّضة، كما تساعدني على إيجادِ نفْسي شيئًا فشيئًا داخلَ هذا البيت الكبير.. أغلقنا الغرفَ غير المأهولة لأنَّني لو دخلتُها عن غير قصدٍ سوف أضيع؛ ففي أحدِ الأيام احتجتُ لساعة كاملة للذَّهاب إلى المكتبة التي في غرفتي! أمرٌ مزعج، ولهذا السبب قرَّرت أن أزرعَ الكتبَ على طول الطريق حتَّى لا أضيع في المرَّة القادمة، ولكنَّ ذلك لم يكن عمليًّا في كلِّ الأحوال.

يزورني ضيوفٌ دائمًا، لا أتعرَّف على بعضهم للأسف أحيانًا، رغمَ ذلك أعرف جيدًا أن أولادي وأحفادي يكونون في الغالب جزءًا منهم. أحيانًا أروي لهم أشياء نسوْها من ماضيهم، أحيانًا أخرى أجدُهم مُختلفين ولا أعرف عنهم شيئًا، إنَّها قلةُ مراعاة منّي.. هذا صحيح، ولكن ماذا بيدِي؟

هل قلتُ لكم إنَّني التقطتُ هذه الصورة بنفْسي من نافذة غرفتي؟ أحببتُ التصوير دائمًا، أظنُّ أنها كانت صباحَ أو مساء أحدِ أيام هذا الشتاء. نعم، أتذكرُ ذلك الآن، الهواءُ المنعش والجاف يملأ رئتي، والرّمادي المائل إلى الزرقة في الزهور يبعث فيَّ السعادةَ وأنا أرى انعكاسَها فوق مياه البحيرة المتموجة على نحوٍ ضئيل.. أرسلُها لكم كي تفكروا بي وأنتُم تنظرون إليها.

امرأةٌ من المدينة تجلبُ لي وجباتِ طعامي (لا أعرف ماذا تسمَّى هذه المؤسسة بالضبط، لأنَّ اسمها فيه حروفٌ كثيرة)، تضع فوقَ ثيابها شارةً لأعرف اسمَها: بريجيت. امرأةٌ لطيفة وأحبُّ أطعمتَها كثيرًا، ولكنَّ كارولين -الممرِّضة التي تحمل هي أيضًا شارة- يكون دورُها المراقبةَ

لأنَّني أحيانًا أحاول أن أقطع اللحمَ بالملعقة، أو رشَّ الملح أو الفلفل الأسود على الحلويات! قالت لي إنَّني الأسبوع الفائت أكلتُ السلطةَ قبلَ المقبِّلات، والمثلجات قبْل الحساء، ولا بدَّ أن يكون كلامُها صحيحًا تمامًا.

حتَّى وقتٍ قريبٍ كنت ما أزالُ أقرأ الكتبَ قليلًا، ولكنْ شيئًا فشيئًا أصبحتِ الكلماتُ تتراقص أمام عينيَّ كلَّما أمسكت كتابًا، أو أنها لا تعني لي شيئًا، وأعجزُ تمامًا عن فهْمها. على الكومودينو، بجانب صورةٍ كتبتُ على جانبِها «كليليا»، أرى روايةَ «مائة عام من العزلة»، اضطررتُ لقراءتها كاملة في السّابق بما أنَّهم أخبروني أنني درَّستُ غارسيا ماركيز في الجامعة، الآن من المستحيل أن أتجاوزَ فصلَها الأوَّل لأنَّني مع نهايته أجدُني نسيتُ البداية، رغمَ ذلك أجدُ هذه الرواية مثيرةً جدًّا، وكثيرًا ما تمنَّيت أن أعرفَ بقية الأحداث.

اليوم أو البارحة -لا أعرف تحديدًا، المهمُّ أنه منذ وقتٍ قريب جدًّ- تلقَّيت هديةً لعيد ميلادي الرابع والثَّمانين، كانت عبارةً عن سترةٍ مبطَّنة من الداخل، مريحة جدًّا. يبدو أنَّني أردت أن أنام بها معتقدًا أنَّها بيجاما؛ ضحكتْ كارولين كثيرًا، وأنا أيضًا ضحكت، ففي النهاية لم يكن في الأمر خطورةٌ كبيرة.

أصْدقائي الأعزاء، هل قلت لكم إنَّ رسالتي هذه.. هي الأخيرة؟

مازلتُ بالتأكيد قادرًا علي الكتابة لكم قليلًا، ربما.. على الرَّغم من خشيتي أنها ستكون كتابة مفككة، ولكنّي سأغادر.

يوم الاثنين أو.. حسنًا، لنقل قريبًا، سوف أدخلُ إلى مؤسسةِ رعاية، لا أعرف أين تقع، الجميع هنا يقولون إنَّ السكنَ بمفردي لم يعدْ مُمكنًا لأنَّه غيرُ آمن، ومعقَّدٌ جدًّا، وأولادي قالوا: نعم.

لن أنظرَ إلى البحيرة بعدَ اليوم، سوف تنظرونَ إليها من أجلي.
أقبِّلكم.
موريس.

ملاحظة: أتمنى أن تصلكم رسالتي!

فريدريك بيغبيديه

كاتبٌ فرنسي وناقدٌ أدبي، ومخرجٌ ومذيع في التلفزيون الفرنسي. ولدَ في 2 سبتمبر 1965
في نويي- سور- سين في فرنسا. حصلَ على جائزة رينودو الأدبية عامَ 2009 عن روايته: «رواية فرنسية». صدرَ له منذ عام 1990 ثمانِ رواياتٍ لعلَّ أشهرها «الحب يدوم ثلاث سنوات»، والتي تُرجمت إلى عدةِ لغات من بينها العربية، ولاقت نجاحًا كبيرًا، وثلاثة مجموعات قصصية، وعدة مقالات ورسوم كاريكاتورية. اشتهر بيغبيديه بأسلوبه الساخر واللاذع.

الوحدةُ للكثيرين

لم يُخلق الرجلُ ليبقى وحيدًا ربما، ولكنه وحيدٌ رغمَ هذا، حتى لو كان متزوّجًا، يبقى الرجل وحيدًا ومنْبوذًا على سطح كوكبٍ يدور في فضاءٍ فلكي بسرعة 29.79 كلم في الثانية. يولَد الرجل.. يركض.. يُسارع ليعيش.. يقرأ الكتب.. يذهبُ إلى السينما.. يُعاني.. يتناول فطورَ الصباح.. يموت.. أحيانًا، وأثناءَ كلِّ هذا، قد يبْدو له أنَّه لم يُخلَق للعزوبية الأبديَّة، قد يبحثُ إذًا عن الوقوع في الحب، هذا يعني أنْ يكذبَ على امرأةٍ جميلة، وعلى نفسِه بذاتِ القدْر.

دَعونا نراه بعينٍ متفهّمة وحنونة: يحاول أن يكون محبوبًا، وأنْ يكتسب شعبيةً مثل مرشَّح داخلَ حملة انْتخابية، هل يشكُّ ألّا يقدر على تحقيق ما يَعِدُ به؟ قد يجرّب إقناعَ نفسه بأنَّه سعيد.. يتزوج.. يتناسل.. يلتقطُ صوَّرًا ملوَّنة؛ كمحاولةٍ منه لتخليد كلِّ الأشياء الزائلة. كم تبدو رؤيتُه مؤثرة داخل هذه اللَّقطات، يمسك بين يديْه رضيعًا يلبسُ اللونَ الوَرْدي بكامله، هذا الأخيرُ لا يعرف بعدُ أنه سينتهي وحيدًا هو أيضًا. إحدى يديه تُمسك يدَ زوجته وتضغطُ عليها (هل ليمنعَها من الرحيل أو فقط من أجل طمْأنة نفسه؟).

اليوم الذي يكتشفُ فيه الرجلُ أنه مخدوع يرفع عينيه إلى السماء، ومن خلال دموعِه التي تتقاطر ينظرُ إلى الشمس التي تقفُ على مسافةِ 152 مليون كلم من الأرض، لا تحمله قدماه؛ فيزحف على الأرض، يتقيَّأ فطوره. إنَّه مثيرٌ للشَّفقة، نرجوكم أن تعْذروه بسبب هذا الجزء المحبِط من القصة! إثرَ ذلك يخرجُ في المساء، بعدما يتقبَّل أخيرًا أنَّ كلَّ الرجال محكومون بالعزوبية، البعضُ يحتاج لوقتٍ أطول لتقبُّل ذلك، ولكنْ هذا

هو مصيرُهم الطبيعي؛ التسكُّع من بارٍ إلى بار، من مدينةٍ إلى مدينة، من امرأةٍ إلى امرأة، مشاهدة أفلام الفيديو، أكل مزيدٍ من الأطباق في الخارج، الرقص أمامَ المرآة، محاولة التَّظاهر بأنه تحوَّل إلى شخصٍ آخر، صُنع أشياء من قبيل معلبات اللبنة، أو العطور، أو السيارات، أو الروايات؛ كلُّ هذا لإسعادِ السيدات، لإبْهارهنَّ (بلا جدْوى طبعًا، بما أنَّ الأشياء الوحيدة التي تستطيعُ إسعادهنَّ هي الأشياءُ التي لم تُصنَع بعد).

غيرُ المتزوِّجين ليسوا مرتاحين لأنهم لا يمتلكونَ امرأةً تطلب منهم الاغتسال. نتعرَّف على الأعزب دائمًا مِن خلال رائحة الخمر التي تفوحُ مع أنفاسه، ذقنِه غير المحلوقة بعنايةٍ، والزرِّ النّاقص دومًا في قميصِه النَّتن. الأعزبُ مثيرٌ للشَّفقة أكثر مما يثيرُ الرغبة، إلّا للرجال المتزوِّجين الذين يتخيَّلونه حُرًّا، والحقيقةُ أنه مُحبَط ليس أكثر. الربُّ يعرف أنه يجب أن يكون محبَطًا ليأكل وجبةً سريعة من ماكدونالد يومَ الأحد مساءً أمام التلفزيون، خصوصًا منذ تمَّ تعويض «آن سينكلار» «بميشال دروكير».

الرجلُ المتزوِّج مخطئ بلا شكٍّ في غيرتِه من الأعزب، لكنه لا يستطيعُ فعلَ شيء حيالَ ذلك لأنَّه شعورٌ أقوى منه. يحلم أن يوقعَ جميعَ النساء، ويتخيَّل أنَّ الأعزبَ غارقٌ في بحرٍ من الجميلات، أنَّه يمتلك حياةَ مغامرٍ جميلة.. معَ عطلة نهايةِ أسبوعٍ إيطالية، مُداعبات فَمويَّة، عبثٌ كبير، وضعياتٌ جديدة لممارسة الجنس، رسائلُ مثيرة على بريدِه الصوتي..، يجهلُ أنَّ الرجال غيرَ المتزوجين يعودون كلَّ ليلةٍ إلى بيوتهم لوحدهم، خائبين إلّا لو كانوا أفرادًا من البويز- باند (وحتَّى في هذه الحالة يجب أن يكونوا متجدِّدين لأنَّ الأمرَ لا يمكن أن يصمدَ طويلًا). أفضلُ دليلٍ على أنَّ غيرَ المتزوجين تَعيسون هو أنَّ النساء لا ترغبُ بهم؛ يفضِّلن إيقاعَ زوجِ أقربِ صديقةٍ إليهن.

شخصيًّا، أعيشُ مع أحدهم لأنَّني ضعيفٌ، لا أمتلكُ الشجاعةَ الكافية لأعيش وحيدًا، ولا لأتزوج ثانية. ثمَّة منطقةٌ فنيَّة غائمة بينَ العزوبية الكئيبة والزَّواج المملّ: دَعونا نسمّيها السعادة.

يصلحُ الزواج لحمايتِنا من الاستسلام والوقوعِ أمامَ حقيقة الحياة؛ ألَا وهي الموت، كما يقول سيلين في كتاب رحلة في نهاية الليل.

ولكنَّ الحبَّ كذبةٌ تحمل جوانبَ جيدة. قلتُ لنفسي وأنا أعضُّ أذنَ ديلفين، تحتَ قمرٍ معلَّق على بُعد 384.400 كلم من رؤوسنا الصَّغيرة والبريئة.

إيريك إيمانويل شميت

إريك إيمانويل شميت، مِن مواليد 28 مارس 1960 في سانت فوي ليه ليون. مِن أشهر الكتّاب الذين يكتبون باللُّغة الفرنسية. هو كاتبٌ مسرحي فرانكو بلجيكي، قاصٌّ وروائي ومخرجٌ وممثل. لديْه أعمالٌ كثيرة بين روايات ومجموعات قصصيَّة ومسرحيات. وتحوَّل عددٌ من كتبه إلى أعمالٍ تلفزيونية ومسرحية لعلَّ أشْهرها في العالم العربي «السيد إبراهيم وزهور القرآن»، التي قامَ ببطولته الفنان عمر الشريف. تُرجمَت أغلبُ إلى أعماله إلى أكثرَ من عشْرين لغة، مِن ضمنها العربية. وتحصَّل على جوائز عالمية كثيرة.

حاملةُ باقةِ الورد

في محطةِ زيوريخ، على الرَّصيف رقم ثلاثة، كان ثمَّة امرأةٌ تنتظر كلَّ يوم -بباقة ورودٍ في يدها- منذُ خمسة عشرة عامًا.

في البداية، لم أكن أرغبُ في التَّصديق لوْلا أني كنتُ مضطرًّا للسفرِ عدَّة مرات إلى ناشري باللغة الألمانية «إيغون أمّان»، قبلَ أن ألاحظها. احتجتُ لوقتٍ طويل حتى أكوِّن انْدهاشي؛ ذلك لأنَّ المرأة المسنَّة كانت تبدو عاديةً جدًّا، محترمة جدًّا، هادئةً إلى الحدِّ الذي لا يمكن معه أن تجلبَ الانتباه.

كانت ترتدي طقمًا من القماش الأسود، بتنُّورة طويلة، وحذاء مسطَّح، وجوارب غامقة، وثمة مظلَّة بمقبضٍ على هيئة منْقار البطِّ تخرج من حقيبتها الجلديَّة، مشْبك من اللؤلؤ يُمسك شعرَها المُمَشط في هيئةِ كعكة إلى مؤخِّرة رقبتها؛ بينما تظهر باقةٌ من أزهار الحقل البرتقالية في الغالب بينَ أصابعها التي ترتدي القفّاز. لا شيء كان يسمحُ بوضْعها في خانةِ المجانين أو غريبي الأطوار؛ لذلك فإنَّني أعْزو لقاءاتنا إلى الصُّدفة.

في ربيع أحدِ الأيام، جاءت «أُولا»؛ وهي مساعدةُ «أمّان» لتستقبلني على بابِ مقطورتي. يومَها اكتشفتُ ما لم أكن أعرفه.

- إنَّه أمرٌ مثير للفُضول حقًّا، إذْ يبدو لي أنَّني أرى هذه المرأةَ باستمرار، صدفة عجيبة! يجب أن تكونَ في انتظار نسْختي الثانية. شخصٌ ما يركب دائمًا نفسَ القطار الذي أركبُه وفي نفس الوقت أيضًا!
- لا، أبدًا. (قالت «أولا» متعجِّبة) إنَّها تقفُ هنا كلَّ يوم، وتنتظر.
- مَن؟

- شخصًا لا يأتي أبدًا؛ لأنَّها تغادرُ وحيدةً كلَّ مساء، لتعودَ في الغدِ وتقف في المكان نفسِه.
- حقًّا!؟ منذُ متى يحصل هذا؟
- أنا شخصيًّا بدأتُ أراها منذُ خمسة أعوام، لكنْ صادف أن تحدَّثت معَ رئيس المحطة وأخبرني أنه بدأ يلاحظُ وجودَها منذ خمسة عشرة عامًا!
- إنَّكِ تسخرين منّي يا «أولا»! إنَّك تتخيَّلين رواية!

احمرّ وجهُ «أُولا». كانت من النوع الذي يتحوَّل وجهُها إلى اللوْن القُرمزي مع أدْنى شعور. تلعثمت، ضحكَتْ بتردُّد، وهزَّت رأسها:

- أقسمُ لك أن هذا صحيح. كلَّ يوم طيلةَ خمسة عشَر عامًا. علاوةً على ذلك، أنا متأكدة أنَّ الأمر يتجاوز الخمسةَ عشَر عامًا؛ لأنَّ كلًّا منّا لديه عددٌ معيَّن من السنوات ليسجِّلها حولَ هذه المرأة، وبالتالي مَن يدري مَن هو الشخصُ الأوَّل الذي رأى هذه المرأةَ ومنذُ متى! أنتَ مثلًا، تذهب وتجيء على زيوريخ منذُ ثلاثة أعوام ولم تحدِّثني عنِ الأمر سوى اليوم، لعلَّها تنتظر هناك منذ عشرينَ أو ثلاثينَ سنة، وهي لا تجاوبُ على مَن يسألها عمّا تنتظره، أيًّا كان مَن سألها.
- معها حقّ، مَن بإمكانه على أيّ حالٍ الإجابةُ عن سؤال كهذا؟

لم نتوسع أكثرَ في الموضوع لأنَّه كان علينا التفرغُ لمجموعةٍ من اللقاءات الصحفية.

لم أفكرْ في الأمر أبدًا حتى سفري القادم. وبمجرَّد أن أعلنتِ الأصواتُ المكبِّرة في القطار وصولَنا إلى زيوريخ حتَّى تذكرتُ على الفور حاملةَ باقة الورد. وهنا تساءلت: هل هذه المرَّة أيضًا سوف...

كانت هنا، مُتيقظة، تحرس الرصيفَ رقم ثلاثة. وجدتُ نفسي مقابلًا لها. وقفتُ محدقًا بوجهها، عينان ملوَّنتان، رغمَ أنه باستطاعتي القول إنَّهما كانتا متفسِّختيْن بأثرِ الزمن، بشرةٌ شاحبة وصحية ومُخطَّطة بعلامة زمنية مُعبرة، جسمٌ نحيف لكنْ متناغم، من السَّهل التخمينُ أنه كان حيويًّا وقويًّا. تبادلَ رئيسُ المحطة كلمةً معها. أومأتْ برأسها وابتسمتْ وديًّا، ثمَّ واصلتِ التركيزَ في صوت السكة الحديدية دونَ أن تتأثر. لم أتمكَّن إلا من اكتشاف شيء واحدٍ غريب بعضَ الشيء: الكرسي القُماشي القابل للطَّي الذي كان معها، أم أنَّها ليست -بالأحرى- علامة على عقلية عملية؟

وصلتُ أخيرًا إلى دار النَّشر «أمّان»، وعندئذٍ كنت قد قرَّرت بدءَ البحث..

- "أُولا»، أتوسَّل إليكِ، يجب أن أعرفَ أكثرَ عن المرأة التي تحمل باقة الورد.

تحوَّل خداها بسرعةٍ إلى اللون القرمزي.

- حسنًا، بما أنني كنت متأكِّدة من أنك ستعودُ لتسألني عنها؛ فقد أخذتُ احتياطاتي، لقد ذهبت إلى المحطَّة وثرثرتُ مع بعضِ العاملين هناك، وها أنذا صديقةٌ مقرَّبة مع المسئول عن الأمتعة.

كنتُ أعرف أنَّ «أُولا» من النوعِ الذي يمنحُ الآخرين شعورًا بالارتياح؛ لذلك كنتُ متأكدًا من أنها تمكَّنتْ من سحبِ أكبرِ قدرٍ ممكن من المعلومات، على الرَّغم من أنها مفاجئة، وسلطويَّة بعضَ الشيء، ومليئة بنظرةٍ ثاقبة تدقِّق في محاوريها، إلا أنَّها تستطيع بسهولةٍ تكذيبَ هذا النهج القاسي بروحِ الدُّعابة التي تمتلكُها، وخفَّة الظلِّ التي لا يتوقعها المرءُ مع هذا المظهرِ الصارم. إذا كانت تتصادقُ معَ الجميع فذلك لأنها تواجِه مشكلةً في إخفاء نوعٍ من التَّعاطف -الفضول- تجاه كلِّ العالم.

- رغمَ أنَّها تقضي جميعَ الأيام في الخارج على منصَّة محطة، إلا إنَّ المرأةَ حاملة باقة الورد ليستْ متشرِّدة. تسكن في منزلٍ جميل وفخم، في حيّ مشجَّر، حيث تعيشُ وحيدة، تساعدُها بشكل يومي خادمةٌ تركية خَمسينيَّة تدْعى السيدة ستاينميتز.
- السيدة ستاينمتز؟! هل تستطيع السيدةُ التركية أن تخبرَنا عمّا تنتظره سيدتُها في المحطة؟
- التركية تفرُّ هاربةً بمجرد أن تقتربَ منها. أحدُ الجيران الذي يسكنُ في الشارع المقابل أخبرني أنَّ المرأةَ التركية لا تتكلَّم الألمانية ولا الفرنسية ولا الإيطالية.
- كيف تتواصلُ مع ربَّة عملها إذًا؟
- بالرُّوسية.
- المرأة التركية تفهمُ الروسية؟
- نعم، والسيدة ستاينمتز أيضًا.
- هذا أمرٌ مثير للاهتمام «أولا». هل استطعتِ معرفةَ شيء حولَ الوضع الاجتماعي للسيدة ستاينمتز هذه؟
- لقد حاولتُ ولكنّي لم أجدْ شيئًا.
- زوج؟ أطفال؟ أقارب؟
- لا شيء، لنكنْ واضحين.. أنا لا أقولُ إنَّه ليس لديها زوج، أو زوج ميت، أو أطفال؛ ما أعْنيه هو أنَّني أجهل ذلك فقط.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندَ استراحة شربِ الشاي، حولَ قطع من البسكويت، لحقَ بنا الناشر «إيغون أمّان» وبعضُ الموظفين، ففتحتْ الموضوع مجدَّدًا.

- ما الذي تنتظره المرأةُ حاملةُ باقة الورد، حسبَ رأيكم؟

- ابنَها. (أجابت كلاوديا) الأمُّ فقط مَن لا تتوقَّف عن انتظار قدوم ابنها.
- لماذا ابنها؟ (تساءلت نيللي) لماذا لا تكون ابنتها!؟
- زوجها. (أردفت دوريس).
- حبيبها. (أصلحت ريتا).
- أختها؟ (اقترح ماتيس).

في حقيقةِ الأمر، كلُّ شخصٍ من الحاضرين كان يحكي عن نفسِه من خلال إجابته؛ كانت كلاوديا تُعاني من غياب ابنها الذي يدرس في برلين، ابنة نيللي كانت متزوجةً في نيوزيلاندا، تتحدَّث دوريس عنْ زوجها الذي -وبحُكم عمله كمسئولٍ تجاري- لا يتوقَّف عن السفر من مكانٍ إلى آخر، ريتا كانت تغيّر عشّاقها مثلما تغيّر ملابسَها الداخلية، أمّا ماتيس -هذا الرجلُ الشابُّ المسالم الذي يملك وعيًا يقظًا، الذي فضَّل أداءَ خدمة مدنية من خلال العمل بدلًا من أداءِ خدمته العسكرية- احتفظَ بالحنين الدائم إلى شرْنقة العائلة.

اعتبرتْ «أولا» زملاءها مُتخلفين عقليّين.

- طبعًا لا، إنها تنتظر شخصًا ميتًا؛ حيث لم تتقبَّل فكرةَ موته.
- هذا لا يغيّر شيئًا. (قالت كلاوديا بتعجُّب) يمكن أن يكون هذا الشخصُ الميت ابنَها.
- ابنتها.
- زوجها.
- حبيبها.
- أختها.

- أو أخوها التوأم، الميتُ عند الولادة. (أضافت الحزينة المنعزلة رومي).

نظرْنا إليها قائلينَ في أنفسنا، لو أنَّها ليست بصددِ مُصارحتنا بسرِّ حاملة باقة الورد، فهي على الأقلِّ تقول سرَّها هي؛ السبب في تعاستها الدائمة.

للحُصول على أكبر قدرٍ من التنوُّع في الاقتراحات؛ توجَّهت إلى إيغون أمّان.

- قلْ لنا أنت يا إيغون، ما الذي تنتظرُه هذه المرأة برأيك؟

على الرَّغم من أنه يحرصُ على رفقتنا، كان إيغون لا يتكلَّم كثيرًا خلالَ هذه الاستراحات، التي يعتبرها طفوليَّة. شغوف، بحواجب ذكيةٍ وأنف دقيق، قرأ كلَّ شيء، وفكَّ شفرةَ كلِّ شيء. منذ ستّين عامًا يستيقظ كلَّ يوم على الساعة الخامسة صباحًا، وبسيجارة مُشتعلة يفتح المخطوطات، يتابع الروايات، يلتهمُ المقالات. كان شعرُه الأبيض يمنح فكرةَ أنَّه عاش حياةً مليئة بالمغامرات، وإحساسًا أنَّ رياح بلدانٍ كثيرة قد عبرتْ من خلاله. دخانُ أطنان السجائر التي دخَّنها، أفكارُ الكتب التي نشرها، إلا إنَّه لا يؤكد شيئًا، لا يقيِّم أخلاقيًّا أيَّ شيء. لطالما كنتُ معجبًا بفضولِه الدائم، شهيتِه المفتوحة دومًا نحوَ المعرفة، موهبتِه في اللغات، أشعرُ أني مُبتدئ أمامه.

هزّ إيغون كتفيْه متابعًا العصفورَ الصَّغير الذي يحلقُ على غصن شجرةِ الزيزفون المزهرة، تاركًا بعض الكلمات تسقطُ من شفتيه:

- حبها الأول؟

ثمَّ مُحرَجًا من هذا الاعتراف، غاضبًا لأنَّه ترك نفسَه ليبوح؛ ضغطَ على جفنيه ووجَّه لي نظرة شديدة:

- ماذا عنك يا إيريك؟ ماذا تظن؟

- حبها الأول، الذي لن يعود. (تمتمتُ).

حلَّ الصمتُ بيننا، فهمْنا أخيرًا الفخَّ الذي وقعْنا فيه جميعًا، لقد أفصحنا عنْ رغباتنا الحميمة من خلالِ هذه الغريبة، مُعترفين بما ننتظرُه، أو ما نودُّ حدوثَه في أعْمق أعماقنا، كم كنتُ أتمنى لو أستطيع اختراقَ هذه الجبهاتِ لأعرفَهم بشكلٍ أفضل، وكم وددتُّ رغمَ ذلك ألّا يتمّ اختراقُ جبهاتي في المقابل! أمرٌ مؤلم حقًّا أن نعيشَ بهذا الكمّ من الصناديق المغلَقة، وهذا الحمْل الثقيل من الكلمات غير المنْطوقة، وهذا الملاذِ المظلم المحاط بأصنامي! لم أستطعْ نطقَ كلمات معيَّنة دون الانهيار. الصمتُ أفضلُ في كثيرٍ من الأحيان، ألا يستمدُّ كلٌّ منّا مدى عمقه من مقدار صمتِه؟

معَ العودة إلى دياري، واصلتُ التفكيرَ في المرأة حاملةِ باقة الورد، ولأنَّ رحلاتي التالية إلى زيوريخ كانتْ عبرَ الجوّ أو الطريقِ السريعة، في الطائرة أو السيارة؛ لم أجدِ الفرصةَ أبدًا للمرور مجدَّدًا على محطَّة القطار. مرَّت سنة أو اثنتان.

المسألةُ مع هذه المرأةِ حاملة باقة الورد كانت أنَّني أنساها دون نسيانها، أو أنَّني بالأحرى كنت أفكرُ فيها في أوقاتْ وحْدتي، ساعات يكون من المستحيل فيها أنْ أتساءل حولَ أيّ شيء أو أحد. كانت صورتُها لا تطارد سوى لحظات حزني. نجحتُ في أحد الأيام أن أتذكَّرها خلالَ إحدى مُحادثاتي التليفونية مع «أُولا».

- بلى، أؤكد لك: ما تزال حتَّى اليوم هناك بشكلٍ يومي، الرصيف رقم ثلاثة. إنَّها تتعب بالطبع في بعضِ الأحيانِ فتضطرُّ للجلوس على كرسيها القابل للطيّ، لكنَّها سرعان ما تقف من جديدٍ ممسكةً بباقةِ ورودها، متتبّعة صوتَ القطار.

- إنَّها تسحرني.
- أنتَ مخطئ، على الرغم من مظْهرها الذي لا يوحي بذلك فإنها مختلَّة بالتأكيد، مجرَّد مجنونة بائسة، ففي نهاية الأمرِ لا يمكن اليوم، في زمن الهاتف والإنترنت، انتظارُ شخصٍ على منصَّة محطة قطار، أليسَ كذلك؟
- ما يهمُّني ليس سبب انتظارِها في هذا المكان أو ذاك؛ ما يهمُّني هو مَن الذي تنتظره، مَن نستطيع انتظارَه كلَّ هذه السنوات، وربَّما طيلة حياتنا؟
- الكاتب بيكيت انتظرَ غودو.
- مُحاكاة! مجرَّد صورةٍ زائفةٍ أراد أن يبيّن بها أنَّ العالم عبثيٌّ، بلا إله، وأنَّنا مخطئون في أن نعدَ أنفسنا بأيِّ شيء في هذه الحياة. همُّ بيكيت كان مسحَ السماء كما الأرض من الانتظارات، مرسلًا أيَّ بصيص أملٍ إلى القمامة، أمّا أنا فما يهمُّني في أمر هذه المرأة سؤالان فقط أسألهما لنفسي باستمرار، الأول: مَن الشخص الذي ننتظره؟ والثاني: هل نحن محقّون أم لا في حال انتظرنا؟
- اسمع، لقد كان المديرُ يسمع كلَّ حديثنا، وهو يريد أن يقرأ لك شيئًا.
- إيريك؟ جُملة واحدة فقط لك، «الأمرُ المثير في أيِّ لغزٍ ليس الحقيقة التي يخفيها، ولكن السحر الذي يحمله».
- شكرًا أنك قرأتَ لي هذا إيغون.

أغلقتُ سماعة الهاتف، متوقِّعًا أنه يضحك منّي في الطرف الآخر.

في الرَّبيع الفائت، أعادتْني الطريقُ الحديدية إلى زيوريخ من أجل مُحاضرة، ومنذُ صعودي إلى القاطرة لم أكنْ أفكرُ في شيء سواها. كنتُ سعيدًا أنني سأراها، وقورة، باسمة، وفيَّة، متجاهلة الجميع، مركزةً على شيء واحدٍ.. نجهله. رأينا هذه المرأةَ لدقائقَ ليس أكثر، وتحدَّثنا عنها لساعات، كما لو أنَّها أبو الهول الذي يحملُ سرًّا مُغلقًا على جميعِ تخيُّلاتنا.

معَ الاقتراب من زيوريخ، توصلتُ إلى الشيء الوحيد المؤكد حولها: أنَّها لا تنتظر أيَّ أحدٍ منّا. صمتُنا، كسلُنا في البحث، نسيانُنا المتقطع لها، هل هو ما تجذَّر هنا في هذه الإهانة؛ حيث إنها تنظرُ لنا كما لو أنَّنا غير موجودين فعلًا!

- زيوريخ!

ما إنْ وضعتُ قدمي على الأرض حتى لاحظتُ غيابها، كان عددٌ قليل من الواقفين يغادرون الرَّصيف رقمَ ثلاثة، تاركين مساحةً نظيفة وخالية.

ما الذي حدثَ لها؟

بينَما كانت سيارةُ الأجرة تمرُّ عبرَ زيوريخ منعتُ نفسي من استنتاج أيِّ شيء، لا بدَّ وأنَّ «أُولا» تعلم. «أُولا» تعلمُ نعم، ستقول لي «أُولا». واصلتُ في تأمُّل هذه المدينة الفريدة إذًا، الغنية والمتواضعة في الآن ذاته، حلمُ الجدّات؛ حيث يبدو أنَّ المباني قد شُيِّدت حول نباتاتِ إبرة الراعي المتوَّجة على النوافذ. مدينةٌ هادئة، تبدو نائمةً مثلَ البحيرة التي تقع على جانبها، بينما داخلَ الجدران السميكة تقعُ آلافُ الشركات ذات الرِّهانات الاقتصادية القوية. تبدو لي زيوريخ ساحرةً، بعدم وجود سحرٍ فيها، بينَما نحن اللاتينيّين نحكمُ على كلِّ ما هو قذر، مُلتوٍ، فوضوي؛ بأنَّه مثيرٌ للمغامرة. زيوريخ الهادئة، النظيفة، المنظَّمة، يصبحُ من الغريب أن تفوِّت الكثيرَ من الغرابة، لديها جاذبيةُ الحبيب الأنيق، صاحب ربْطة

العنق والبدلة الرسمية، مثال جيدٌ لابن العائلة العريقة، مثالٌ للمثالية، ولكنه قادرٌ على أبشع صنوفِ الفجور بمجرَّد إغلاق الباب.

في دار النَّشر «أمّان»، أتممتُ أعمالي - مناقشات، برامج - ثمَّ اغتنمتُ استراحةً قصيرة لأجذب أطرافَ الحديث مع «أُولا» ونحن واقفان على الباب:

- ما الذي أصاب حاملةَ باقة الورد؟

قلَّبت عينيها ثمَّ قالت:

- بمجرَّد أن أجدَ الوقتَ سوف أحكي لك.

أقبلَ المساء، وبعدَ ندوةٍ، وحفلةِ توقيع وعشاء، عدْنا مُنهكين إلى الفندقِ دون تبادل أيِّ كلمة توجّهنا مباشرةً إلى البار. طلبْنا شرابًا، ثمَّ أغلقتُ هاتفي في حينِ كانتْ «أولا» تشعل سيجارة.

- إذًا؟ (تساءلتُ).

لم أكنْ مضطرًّا للتَّحديد فقد كانت تدركُ ما أعنيه.

- حاملةُ باقة الورد كانت تنتظرُ شيئًا، وقد جاءَ أخيرًا؛ لذلك لم تعدْ موجودة.

- ما الذي حدث؟

- صديقي المسئول عنِ الأمتعة حكى لي كلَّ شيء. منذ ثلاثة أسابيع، وقفتْ حاملة باقة الورد فجأة، مشعَّة، وعيناها تلمعان من الابتهاج، ثمَّ بدأت تلوّح لرجلٍ كان ينزل للتوّ من إحدى القاطرات، ورآها مباشرة. ارتمتْ بينَ ذراعيه، وتبادلا عناقًا طويلًا، كان عمّالُ المحطة متأثرين بسعادتها الغامرة. لم يتعرفْ أحدٌ على هذا الرجل ضخم البِنية، الذي كان يرتدي معطفًا طويلًا غامق اللون؛ لأنَّه كان يضعُ على رأسه قبعةً طويلةَ الأطراف كانت تغطي الجزءَ الغالب

من وجهه، وكل ما اسْتطاعوا قولَه لي هو أنَّه لم يكن متفاجئًا على الإطلاق من لقائهما! غادرَا المحطة بعد ذلك، بذراعين مُتشابكين، قامتْ في اللحظةِ الأخيرة بحركة غُنج؛ فقد تركت كرسيَّها القابل للطَّي في مكانه على الرَّصيف كما لو أنها تقول إنَّها لا تحتاجُه بعد الآن، كما لو أنَّه لم ينتم لها يومًا! آه.. نسيتُ تفصيلًا غريبًا؛ لم يكنِ الرجلُ حاملًا لحقيبَة سفر، ولم يكنْ يحمل في يدِه سوى باقة الزهور البرتقالية، التي أهدتْها له.

- ثم؟

- جارُها صديقي حدَّثني عن البقية، لقد أخبرتُك عنه؟ يسكنُ في الشارع المقابل للسيدة ستاينمتز.

- نعم، نعم، أكملي أرجوكِ.

- في تلك الليلة، دخلَ معها الرجلُ إلى بيتها. أمرتْ خادمتَها بالانصراف، وبأنْ لا تعود إلّا في الغد، وهو أمرٌ احترمتْه السيدة التركية.

- و..؟

- عادت في الغد.

- و..؟

- كانت المرأةُ حاملة باقة الورد ميتة.

- عفوًا؟!

- ميتة.. موتة طبيعية؛ توقَّف قلبها.

- ألا يمكن أن يكونَ هو مَن...؟

- كلّا، ليس هنالك شكٌّ حيالَ هذا الأمر، سكتةٌ قلبية مؤكَّدة من قِبل الأطباء، لقد تمَّت تبرئته، بالإضافة إلى أنه..

- نعم؟!
- لقد اختفى.
- ماذا؟
- اختفى! طار.. كما لو أنَّه لم يدخل ولم يخرج، المرأةُ التركية تقول إنها لم تره أصلًا.
- رغم أنك..
- أجل، جارُها صديقي شهدَ أنه رآه معها، ولكنَّ التركية تنفي ذلك بشكلٍ كامل. على أية حال هذا لا يهمُّ الشرطةَ في شيء، ذلك لأنَّ موتها كان طبيعيًّا. صديقي صمتَ الآنَ لأنَّه كلما أصرَّ أكثر كلما نظرَ له الحيُّ على أنه شخص مجنون.

غرقْنا داخلَ مقاعدنا الجلديةِ لنشرب كأسينا، كنا نفكِّر.

- ألم يترك أيَّ أثر؟ ليست هنالك أية معلومة عنه؟
- لا شيء.
- مِن أيِّ مدينة جاء؟
- لا أحد يعرف.

طلبْنا من النادل كأسًا أخرى، كما لو أنَّ الكحول سيزيح الضبابية والغرائبية.

- وأين هي المرأةُ التركية الآن؟
- رحلت، عادتْ إلى بلدها.
- مَن ورثَ البيت؟
- البلدية.

ليسَ ثمة إذًا أيُّ دافع خسيس يمكن أن يشرحَ الحادثة. شربُ كأس أخرى أصبح ضروريًّا، بدأ النادلُ ينظرُ إلينا نظرة قلقة.

صمتْنا.

«أُولا» وأنا، لم نتمكَّن من فهْم المزيد، لكنَّنا استمتعنا بالتفكيرِ في الأمر مرةً أخرى.

تكون الحياةُ غالبًا قاتلة للقصص.. في بعض الصَّباحات، نشعر أنَّ شيئًا ما سوف يبدأ، نشعر بالامتلاء، بالنقاء، وأنَّنا استثنائيون، ثمَّ يرنُّ الهاتف وينتهي كلُّ شيء، تقطِّعنا الحياة، تُبعثرنا، تكسرنا وتحوِّلنا إلى فُتات، تحرمُنا من نَقاء المسار، لو ثمَّة شيء يجب التوقفُ عندَه في أمر حاملة باقة الورد فهوَ أنَّ الحياة اتخذتْ شكلها. كان لمصيرِها نقاءُ الأدب، وفي نفس الوقت القواعدُ الاقتصادية للعمل الفني.

في الساعة الثانية، قرَّرنا الذهابَ إلى غرفنا، ولكني عجزتُ عن النوم لأنَّني ظللتُ أفكر فيما كانت تنتظرُه المرأةُ حاملة باقة الوردِ على الرَّصيفَ رقم ثلاثة في محطة زيوريخ.

وأعتقدُ أنَّي -وحتى آخر يوم في حياتي- سوف أتساءل حولَ ما إذا كان الموتُ أم الحبُّ مَن نزل منَّ القطار.

آن سير

روائيةٌ فرنسية، مِن مواليد 7 سبتمبر 1960 في بوردو. أَلَّفت حوالي خمسة عشَر عملًا روائيًّا، والتي تشملُ القصصَ القصيرة والرواياتِ والنُّصوص التي يصعب تصنيفُها. تحصَّلت على عدةِ جوائز، من بينها جائزة الغونكور للقصَّة القصيرة عام 2020 عن مجموعتها «في قلب صيف ذهبي»، كما تُرجمَت كتبُها في أميركا وإنجلترا وإسبانيا.

غامضةٌ أكثر، غريبةٌ أكثر

حزمتْ والدتي حقائبها، وأصبحتْ مستعدَّة للمغادرة، ولكنِ اتَّصلت بنا يومَ الأحد بعدَ الظهر، لتقترحَ علينا المجيء لتناول العَشاء عندها. وضعتُ الثلاجة في وضعيَّة تذْويب الثلج، شرحت لي، يجبُ أن أطبخَ هذه الدجاجة قبل أن تفسد.

لا يمكنُ لشيء أن يجعلني مُتفاجئةً بقدْر هذه الكلمات التي قالتها أمي؛ المرأةُ الأنيقة، قليلةُ الاكتراث بأعمال البيت، إنَّها لا تهتمُّ مطلقًا بثلاجتها أو مطبخها؛ لهذا لديْها مساعدةٌ منزلية كنّا نطلق عليها سابقًا طبّاخة، لكنْ يا أمي.. (قلتُ لها) أنا لا أفهمُك! ما الذي يجري؟ مثلما قلتُ لكِ. تردُّ والدتي التي لم تستعملْ مطلقًا هذا التعبيرَ طيلة حياتها: يزعجُني أن تفسدَ هذه الدجاجة، فضلًا عن أنه لا ضيرَ من أن تأتوا لتناول العَشاء عندي من وقتٍ لآخر، أنتِ وفرانسوا.

فرانسوا هو حبيبي، ولم أدْعُه يومًا فرانسوا، ولا أحد مِن معارفي فعلَ ذلك يومًا. ما بالك أمي التي لطالما خاطبتْه بضمير الجمْع دليلًا على الاحترام ولكن المسافة أيضًا. اسمعي يا أمي، (أخاطبُها)، ثمَّة شيءٌ غير طبيعي يجري، لا أتعرَّف عليكِ، هذه ليست طريقتُك في الكلام! ولدَهْشتي سمعتُ ضحكة خافتة بَغيضة: آه.. آه.. آه، انْظري لما تستطيعُ فعلَه ماما، هذا سوف يعلّمك.

أغلقُ المكالمةَ على الفورِ مذهولة. فرانسوا غيرُ موجود، أتردَّد فيما عليَّ أن أفعله، أمي في حالةِ خَرف، أقولُ لنفسي: إنَّه خرفُ الشيخوخة، رغم أنها لم تتعدَّ الثمانيةَ والستّين، ولكنْ يبدو أن بإمكان ذلك الحدوث باكرًا.

ظللت أدورُ حولَ نفسي في الصالون، ثمَّ قررتُ أن آخذَ سيارتي وأذهبَ لرؤيتها لفهم ما يحدث، وعلى ضوئه ربَّما أستدعي طبيبًا. كنّا نقطنُ في المدينة، بينما تسكنُ والدتي في بلدة صغيرة مُجاورة، تقعُ على بُعدِ عشرين كيلومترًا منّا. لا أفهم شيئًا، أقول لنفسي وأنا أخرجُ من المرآب: البارحة عندما تحدَّثنا على الهاتفِ كانت طبيعيةً جدًّا. لا أريدُ حقًّا إزعاجَكم يا صغيرتي، (قالتْ لي) مِن لطفِكم الشديد، ومِن لطف فرانسوا، أنْ ترغبوا في اصْطحابي معكم إلى عطلة نهاية الأسبوع، ولكني أخشى أن أكونَ عبئًا عليكم، لا تتردَّدي أبدًا في تغيير مخططاتك، أنا في حال جيدةٍ في البيت، ونستطيعُ أن نؤجِّل رؤيتنا لبعضنا إلى الأسبوع المقبل.

هذه هي أمي. أمّي تتحدَّث هكذا، وتفكرُ هكذا. لم يحدثْ يومًا أن حدَّثتني عن الثلاجة، أو الدَّجاجة التي ستفسد، أو في أسوأ الحالات كانت ستقولُ ذلك بطريقةٍ مختلفة، بشكل مختلف: ألَا تعتقدين يا صغيرتي أنَّ علينا أكلَ هذه الدجاجة التي أضعُها في البراد منذُ بضعة أيام؟ سوف تطْهوها ساندرا (ساندرا هي المعينةُ المنزلية)، وهذا لا يحدثُ إلّا لو كنتُ في بيتها، وكنّا داخل المطبخ، وامتدَّت يدي وفتحت بابَ البراد، عدا ذلك.. لن يخطر ذلك في بالها أصلًا.

ما الذي يجري مع أمي؟ أقودُ بقلق بعضَ الشيء، ومعَ وصولي إلى مدخل المنزل شعرتُ أني لا أطيق الانتظارَ لرؤيتها والتعرُّفَ عليها.. ضغطتُ على الجرس وأصدرتُ صوتًا: هوو هوو، لأعلنَ عن مجيئي كما أفعلُ عادة، ولمّا فتحتْ والدتي البابَ انتابني شعورُ الارتياح ولكنَّ المفاجأة أيضًا أنَّها هي.. وليست هي في الوقتِ نفسه؛ أعني أنها أمّي طبعًا، بشَعرها المشدود إلى الوراء، ووجهِها الجميل؛ لكنَّها ترتدي فستانًا أصفرَ ناعمًا ومجنونًا، وليست المسألة أني لم أرَه من قبْلُ قطّ، ولكنَّه لا يبدو مثلَ مَلابسها المعتادة. تبادلْنا القُبل، ثمَّ أدخلتني إلى الصالون، وهو ما طمأنَني

بعضَ الشيء، ذلك أنه ما نفعلُه عادةً عندما أزورها، لم تُبدِ تفاجئًا كبيرًا برؤيتي، وهذا أيضًا من عاداتها.

أنا سعيدة جدًّا برؤيتك يا حبيبتي، (قالت لي)، لكني لم أتوقَّع ذلك، ماذا هناك؟ جعلتني أفكرُ بـ «ليز تايلور»[1]، أجل هذا هو، ليس بسببِ تسريحتها حيث تعقص شَعرَها إلى الأسفل حتى يلامس عنقَها، ولكنْ بسبب ذلك الوجْه الجميل، المحدَّد الملامح، والأنف الصَّغير المستقيم، العينيْن الزرقاويْن الغامقتيْن، وللطريقةِ الفريدة جدًّا التي كانت تجعل الممثلةَ حاضرةً بجسدها ووجهها على حدٍّ سواء، ثمَّ أيضًا بسبب هذا الفستانِ الأصفر، القصير، بقماشِه الشفاف. لديك فستانٌ مذهل، (أقول لها)، لم أرَكِ تلبسينَه أبدًا. حسنًا، (أجابتْ أمي)، كان في الخزانة طوالَ الوقت، منذُ الستينيّات ربما، لكنه لطالما ناسَبني، أليس كذلك؟ أجبرتُ نفسي على الابتسام بلطفٍ، وأضفت: لكنه غريبٌ بعضَ الشيء على يوم أحدٍ خريفي، ألا ترينَ ذلك؟ لطالما كنتِ محافظةً يا عزيزتي. أجابتْ وهي تنفثُ دوائرَ الدُّخان من فمها، وهي التي لم أرها تدخنُ قطّ في حياتي!

أدركُ تمامًا أنَّنا نجهل كلَّ شيء عن الأشخاص المقرَّبين منها، أو أغلبيتهم على أقلِّ تقدير، الذين تستطيعُ إبقاءهم مجهولين طيلةَ حياتهم، والذين نكتشفُهم أحيانًا وفجأة بعدَ موتهم، في ملاحظات على مفكِّرتها، على شكل مذكراتٍ أو رسائل، ولكن نفْس الشيء. عبرتْ إذًا فكرةٌ في ذهني.. أنَّ أمّي على علاقة بشخصٍ ما، رجل.. الفستانُ الأصفر لا يمكن أن يدلَّ سوى على هذا، طريقتُها الجديدة في التدخين، أن تُشبهَ ليز تايلور،

---

(1) ليز تايلور: إليزابيث تايلور، واحدةٌ من أشهر الممثلات الأمريكيات، ولدت عام 1923، بدأتْ مسيرتَها الفنية في أربعينيّات القرنِ الماضي، وشاركت فيما يُناهز المائة عمل، تحصَّلت على جوائز بلا حصْر، من بينها الأوسكار في أكثر من مناسبة، عُرفت بجمالها، وتوفِّيت عام 2011.

أتتبَّع بالرغم عنّي خطواتِ شخصٍ غريب في المنزل، حضوره، أتخيَّل رجلًا يقف على الباب فجأة قائلًا: هالو! كيف حالك؟ أنا حبيب ليز (اسْم أمي إليزابيث)! ولكن لا.. يبدو المنزلُ فارغًا إلا مِن آثارنا أنا وهي. ألاحظ فجأة أنَّ أمي تسلط عليَّ نظرةً غريبة؛ إنها تُراقبني، لم تنظر إليَّ أبدًا هذه النظرة، عادتُها في النظر كانت نوعًا من اللامبالاة المحبّبة.

أُصرُّ، ما الذي تريدين قولَه بقصَّة الدجاجة هذه؟ لم أفهمْ لماذا أصبح هذا الأمر مُهمًّا! عادة، أنتِ تجهلينَ ما يوجَد في خزانات المطبخ أو ما يوجَد في البراد، لا يهمُّك الأمر. انحنتْ أمّي مثل فتاة شابَّة، وأطفأتِ السيجارة داخلَ مطفأة كانت موضوعةً على السجاد، نهضتْ وعبرَتِ الصالون: الإنسانُ يتغير، أحيانا، (قالت لي وهي تتصفَّح أوراقًا كانت موضوعةً فوق المكتب)، ألا يحدث معكَ هذا أبدًا؟ ولكنَّك ما تزالين صغيرة!

ثمَّ استدارت، بفستانها الأصفر، ووجهِها المصمّم، وعينيها الزرقاوين جدًّا إلى حدٍّ جعلني أتذكر امرأةً قالت لها ذاتَ مرة: لديك عينان ساحرتان يا إليزابيث. رأيتُها فجأة أكثرَ صِبًا وأشدَّ حيوية منّي، أكثر إغراء، أشدَّ خبثًا، غامضة أكثر، غريبة أكثر.

تحتَ الكوع

أعتقدُ أني بارعةٌ جدًّا في إنتاج الأحلام، أصنعُ في المتوسط أربعةً كلَّ ليلة، وهي رواياتٌ حقيقية، أو قصصٌ قصيرة لأكون أكثرَ دقة. هنالك بدايةٌ دائمًا، متنٌ وخاتمة، حتى طبعًا لو كان الترتيبُ مقلوبًا في أغلب الأحيان، فيبدأ الحلمُ من النهاية لينتهي في المنتصف، لكنْ لهذا أيضًا سحرُه الخاص.

لطالما تركتْني القصصُ المرتَّبة زمنيًّا متشكِّكةً، إذ كيف يمكن القولُ أو الاعتقاد أنَّ قصةً ما قد بدأت هنا أو انتهتْ هناك؟ عرفتُ كاتبةً كانت تقول دائمًا إنَّها تبدأ رواياتِها من النهاية؛ عندما تجد الجملةَ النهائية لروايتها عندئذٍ تستطيع البدءَ فيها!

كثيرًا ما تساءلت: هل كانتْ تقول ذلك لتبْدو ذكيةً وبارعة، أم أنَّ الأمر حقيقي؟ وفكرتُ أنه كما في جميع الحالات مِن هذا النوع حيث يشككُ المرء في صحةَ تصريحٍ قوي يتَّضح أنَّ نصفه صحيحٌ، بمجرَّد أن تستطيع بدْء رواية من نهايتها، وذلك بإيجاد جُملتها الأخيرة. وبما أنَّ هذه المغامرة كانت طريفةً للغايةِ فقدِ ادَّعت أنها فعلتْ ذلك دائمًا، وهو أمرٌ مستحيل في رأيي، وبالتَّحديد لأنها كانت كاتبةً جيدة جدًّا؛ لأنَّ الكاتب الجيدَ يتمتَّع بهذه الخصوصية، إنها حتَّى إحدى خصائصه أنَّه لا يبدأ كلَّ رواياته بالطريقة نفسها.

أعتقدُ أنَّه ثمة مَن يبدأ روايتَه من المنتصف. وأتعجَّب من الصحفيين الأدبيّين في حواراتهم مع الكتاب، كيف أنهم لا يسألون غالبًا هذا السؤالَ الشيِّق، عوضَ السؤال عنِ تاريخ حياة الكاتب، الذي في رأيي لا يعني شيئًا!

إنني أنتج أحلامًا كاملة بوتيرة ثابتة إلى حد ما (وذلك يدفعني أحياناً للتفكير في تلك الآلات التي تقوم ببصق الكرات في ملاعب التنس على فتراتٍ منتظمة) أتساءل من وقت لآخر: ماذا أفعل بها؟

أنا لستُ واحدةً من هؤلاء الرأسماليّين الذين يصرّون تمامًا على جعل كلِّ شيء ينتجونه يؤتي ثمارَه، وهو ما يشير - في رأيي- إلى نقصٍ كبير في الثِّقة في فضائل هذا الزمن، لكنْ يحدث ذلك مع هذه القصصِ الصغيرة بالذات؛ حيث أشعرُ أني مثقلةٌ نوعًا ما.

أحرصُ على كتابة الجزءِ الأكبر من هذه الأحلام، أكتبُها وأقول لنفسي إنَّها لو قُرئتْ بعد موتي فستكونُ شيئًا مضحكًا؛ لأنَّ بعضها هزليٌّ جدًّا بالفعل، لكنْ خلال حياتي، سأحتفظُ بهم تحت الكوع[1].

(1) تحتَ الكوع: عبارةٌ فرنسية تستعمَل للتَّعبير عنِ الاحتفاظ بشيء، تركَه قريبًا، وفي متناول اليدِ لاستخدامه إذا اقتضتِ الحاجة.

غيوم ميسو

غيوم ميسو، مِن مواليد 6 يونيو 1974 في أنتيبس. روائي فرنسي، جعلتْه مبيعاتُ كتبه الكاتبَ الأول من حيث المبيعات في فرنسا منذُ عام 2011. ينشرُ ما يقربُ من عمل واحدٍ جديد كلَّ عام. في عام 2022 باعت كتبُه 1.3 مليون نسخة. في رصيدِه قرابة الثلاثين رواية، تحوَّلت ثلاثةٌ منها إلى أفلام سينمائية، كما أنَّ أغلبَها مترجَمة إلى عدَّة لغاتٍ، وقصةٍ وحيدة هي «الشبح» كتبَها ضمنَ أنطولوجيا قصصية ضمَّت عديدَ الكتاب الفرنسيين.

الشبح

عندما نكون وحيدين لوقتٍ طويل
فإنَّنا نملأ الفراغَ بالأشباح.
موباسان
الهورلا

لينوكس

ضواحي سياتل

السبت 13 ديسمبر

1

اسمي كونستانس لاغرانج، عُمري 37 عامًا. منذُ خمسة أشهر، في يوم عيد ميلادي، تلقَّيت ثلاثة أخبار؛ خبريْن جيّدين وخبر سيّئ.

سوفَ أبدأ بالأخبار الجيدة، عندَ وصولي إلى مركز الشرطة، في صباح 25 يوليو، أعلنَ لي رئيسي القائد سوربيي أنَّني حصلتُ على ترقية، وأصبحت ملازمَ شرطةٍ في لواءِ البحث عن الهاربين، الوطني المرْموق.

بعدَ الظهر، تلقَّيت اتصالًا هاتفيًّا من البنكِ يخبروننني فيه أنَّ طلبَ القرض الذي قدَّمتُه قد تمتِ الموافقة عليه، وهو ما سيسمحُ لي أخيرًا بشراء المنزل الصَّغير الذي أحلم به في حي موزايا، في باريس. أذكر جيدًا أنَّني فكرتُ أنه يومُ حظي بالفعل، وأنني بقيتُ فوقَ غيمتي حتى نهاية بعد الظهر، حتَّى أعلمني طبيبي أنَّ نتائج الصورة الإشعاعية التي قمتُ بها الأسبوعَ الفائت ظهرت، وأنها كشفتْ عن إصابتي بسَرطان في الدماغ.

***

هبوبُ الرياح يجعل نوافذَ غرفتي تهتزُّ، أتساءل عمّا أفعله هنا، وحيدةً على بُعد 8000 كلم من منزلي، في هذا المستشفى الأمريكي العائدِ إلى عصورٍ مضت، تحيط به غابةٌ كثيفة، في لحظة ضعفٍ تركتُ لزوجين صديقين من نيويورك أنْ يُقنعاني بالمجيء إلى هنا لاستشارة طبيبٍ مختصٍّ بأمراض السرطان يعمل في هذا المكان.

كما لو أنَّ ذلك سيغير شيئًا..

عندي سرطانٌ في المرحلة الرابعة، أسوأ نوعٍ من الأورام، عدوانيّ، مجتاح، لا يمكن معه أيُّ جراحة.

أخْبروني في شهر أغسطس أنَّه أمامي أربعة أشهر لأعيشها. نحن الآن في منتصف شهر ديسمبر، وهذا يعني أنَّني تجاوزت توقعاتِهم ببعض الأسابيع حتى الآن، لا حقَّ لي أن أتذمر إذًا.

وصلتُ مساءَ البارحة، أعْياني السفرُ بالطائرة، بمشقَّة توجهتُ إلى النافذة، فتحتُها قليلًا لأستنشق بعضَ الهواء المنعِش. مِن هنا، من الطابق الرابع، يمكنني -تقريبًا- أن أرى المبنى بأكمله؛ مبنى قوطي مَهيب من الطوب الأحمر، مليء بالعديدِ من الأسطح المستدقة، المتخذة شكلَ السَّهم. حسب الكتيِّب التعريفي، بُنيَ هذا المستشفى عامَ 1870، مُحاط بمساحات واسعة من العشب، يبدو وكأنه فندقٌ ضخم قديم، بجناحين يؤطِّران المبنى الرئيسي مخصَّصيْن للإدارة.

أغلقُ عينيَّ، أنا خائفة، لا أريد أن أموت.

- تفضَّلي غداءك يا آنستي الصغيرة!

كان للمُمرضة صوتٌ جذّابٌ، جَهْوريّ. امرأةٌ ممتلئة، وجهُها مرح، وردْفاها ضخمانِ كما لو كانتِ الدُّمية ماتريوشكا.

- أنا مولي باتاغليولا، الممرِّضة. قالت معرِّفةً بنفسها وهي ترفع ذراعيْها البدينتين، لتضعَ أمامي طبق الغداء.

- كونستانس لاغرانج.

- شهيَّة طيبة. (قالت باللغة الفرنسية) سأعودُ إليكِ بسرعة.

تأمَّلت غدائي بقنوط: شريحة سمكٍ مغْموسة في ماء الطهي، خضروات يصعبُ التعرفُ عليها غارقة في صلصةٍ رمادية، مقرْمشات طريَّة، وقطعة جبن بيضاء تستلقي فوقَها شعرةٌ سوداء طويلة.

بالطَّبع، لم يكن آلان باسار في المطبخ!

أغلقُ عينيَّ من جديد، أشعرُ بالاختناق، أفكرُ في هذا الورم الذي يطوِّق دماغي، في مناطق انتشاره التي غزتِ الجزءَ الأيسر من الفصّ الجبهي، في الموت الذي يتربَّص قريبًا جدًّا منّي، والذي لا أملك حيالَه أيَّ شيء.

- لا تلمسي هذا، أيتها البائسة! قد تتعرضين للتسمُّم!

أديرُ رأسي نحو الصوتِ الذي كلَّمني؛ كان رجلًا شابًّا، باسمًا، يرتدي رداءً أبيضَ مفتوحًا، أسفله قميص بيرل جام وينتعل في قدميه حذاء رياضيٌّ من ماركة نايك، وسروال جينز فاتح اللون وممزَّق في بعض المواضع، يشبه سروالًا كنتُ أرتديه عندما كنت في المدرسة الثانوية.

- الطبيب مونتغمري. قال وهو يراجعُ معلوماتي الطبيَّة الموضوعة في جيبٍ حديدي ملتصق بآخر السرير.

أتفحَّص وجهَه عن كثب. كانت لديه ملامحُ رقيقة بشكلٍ لا يصدَّق، عيون خضراء لامعة، لحية خفيفةٌ بالكاد نبتتْ، وقَصَّة شعرٍ قصيرة.

- ألستَ صغيرًا بعضَ الشيء لتكون طبيبًا؟

- أنا في الـ 28! نفسُ سنِّك، أليس كذلك؟

أضربُ رأسي بطرف كفّي:

- هيّا انصرف من أمامي..

- لست أنا طبيبك، إنه الطبيب غودريش، ولكنَّه لن يكون هنا قبلَ يوم الاثنين.

- نعم، هذا ما فهمته للأسف.

- في انتظار ذلك، أستطيع أن أساعدَك بأيّ شيء.
- يمكنك أن تطبخَ لي ضلعًا من اللحم البقري نصفَ شواء مع بطاطس؟

ظلَّ يرمق طبقَ الغداء الذي أمامي، وعلى فمه ابتسامةٌ عريضة.

- سأقول لكِ معلومةً لا أعرف إنْ كانت ستطمئنُك؛ طعامُ الأطباء هنا ليس أفضل من هذا.

نظرَ إلى الساعة المعلَّقة على الجدار، تردَّد، ثمَّ قال:

- بالنسبة لضلع اللَّحم سيكون الأمرُ معقدًا بعضَ الشيء، ولكنْ بإمكاني أن أَجلبَ لكِ برغر، هذا وقتُ استراحتي، وهنالك مطعمٌ للوجبات السريعة قريبًا من هنا، إن كنت تريدين..
- أيَّ شيء غيرَ هذا الشيء الغريب الذي أمامي. (قلتُ وأنا أدفع الطاولةَ ذات العجلات التي أمامي) أريدُ برغر بقطعة لحمٍ كبيرة وجبن مُضاعَف.
- اتَّفقنا!
- وعبوة كولا بدون سكر، وعبوة من البطاطا المقلية.
- حسنًا، حسنًا.

أضاءَ وجهه، وكانت تندُّ عنه ضحكةٌ أبرزت جميعَ أسنانه، هذا الشخصُ يؤثرُ عليَّ بشكل جميل، للمرَّة الأولى منذُ إعلان مرضي أشعرُ مجدَّدًا أني امرأة.

- سأحضر لكِ كلَّ هذا في غضون ثلاثين دقيقة. (وعدني) سوف نأكل سويًّا.

غادرَ الغرفة، ولكني لحقتُه بصوتي:

- لا تنسَ الكاتشاب!

استرخيتُ من جديدٍ فوق سريري، سوفَ أموت في كلِّ الأحوال، ولكني أشعرُ بالانتشاء كَقُبّرة، أريد أنْ أنالَ إعجابَ هذا الرجل، أريد أن أعيشَ قليلًا.. لبعض الوقت.

أقطعُ رغبةً في التثاؤب، ثمَّ أغلقُ جفوني لثوانٍ قصيرة، سأسمحُ لنفسي بنُعاسٍ طفيف في انتظار عودةِ صديقي الجديد من الصيْد.

***

2

أستيقظُ من نصف غفْوتي، الغرفةُ غارقة في الظلام، والجوُّ أصبح قارسَ البرودة، أحدُهم أطفأ الأضواء، ومزيجٌ من المطر الثلج يتكدَّس على بلُّور النوافذ. ألتفتُ ناحيةَ الساعة، لقد تجاوزتِ الثانية، لقد نمتُ ساعتين!

اللَّعنة..

ضغطتُ على الناقوس لاستدعاء الممرضة.

- هل أنهيتِ قيلولتَكِ أيتها الأميرة؟ سألتني مولي باتاغليولا وهي تشعلُ النور.

جسدُها الممتلئ يحوم حولَ سريري، ساعدتني لأصلحَ وضعيَّة الوسائد، ثمَّ بدأت تؤنِّبني مثلَ طفلة:

- لم تلمسي طبقَكِ! كيف تريدينَ استعادةَ قوتكِ إذا كنتِ..

- هل تعلمين إن كان الطبيبُ مونتغومري قد عاد لرؤيتي؟

- الطبيب مونتغومري؟!

ظلَّت متفاجئةً لبضعة ثوانٍ:

- ليس هنالك أيُّ طبيب باسم مونتغومري في هذا المستشفى يا جميلتي، إنَّه الطبيب بلاكوويل مَن يوجَد هنا الآن، لقد قامَ بزيارتِه للمرضى وقد كنتِ نائمة.

أقولُ بإصرار:

- أنا أحدِّثك عن شابٍّ وسيم يلبس الجينز، قميص قطني، وحذاء رياضي، لحية خفيفة، عيون خضراء جميلة..

تجمَّدتْ.. حتَّى الدهونُ التي على وجهها تجمَّدت، بينما نظرةُ ذعر كانت تعبرُ عينيها.

- ولكن، هل.. تتكلَّمين عن داميان؟

- مَن داميان؟

ازدردتْ ريقَها:

- داميان مونتغومري، كان طبيبًا شابًّا يعمل هنا في هذا المستشفى، ولكنه.. إنَّه ميت.

- ميت! متى؟

- منذ أكثرَ من عشرين عامًا!

- هل تسخرينَ منّي يا مولي؟ لقد قابلتُه للتَّو منذُ ساعتين فقط.

رفعتْ يديها إلى السماء، وقالت بغضب:

- إنَّك تفقدينَ عقلك أيَّتها الأميرة، سوف أنادي على الدكتور بلاكوويل، و..

- لن تنادي أحدًا! أعطني حاسوبي أولًا، إنَّه هناك في تلك الحقيبة.

تنهَّدتْ ومدَّتْ لي يدَها بالحاسوب مُنصاعة، فتحتُه ثمَّ اتَّصلت بشبكة الإنترنت الخاصة بالمستشفى. استمررتُ في سؤال الممرضة: تاريخ

الأحداث، اسم الصحيفة المحلية.. كانت أصابعي تركضُ فوقَ لوحة المفاتيح، وبعدَ بضع نقراتٍ ظهرَ على الشاشة مقالٌ صحفي:

وفاةُ طبيبٍ بمستشفى الولاية بسبب جرعةٍ زائدة من المخدرات.

(لينوكس تايم – الثلاثاء 18 مايو 1993).

داميان مونتغومري، طبيب شابٌّ مُختص في الأمراض السرطانية، وينتمي إلى مستشفى ولاية لينوكس، وُجدَ ميتًا في بيته البارحة صباحًا، وحقنةٌ في ذراعه.

مِن خلال التحريات الأولية، حدثَ الموتُ في الليلة الماضية بسببِ إفراطٍ في الكحول والهيروين، وجد رجالُ الشرطة الذين فتَّشوا شقته كمياتٍ كبيرةً من الأدوية، والتي سرقها الطبيبُ من مكان عمله.

مستشفى ولاية لينوكس في حالةِ ذهول، «لطالما امتلك زميلنا سلوكًا مثاليًّا في عمله». صرح مارك هوغار، مدير المؤسسة، (...)

أديرُ عينيَّ عنِ النَّص، وأنظرُ إلى الصورةِ التي تتوسَّط المقال، ما مِن شكٍّ إنَّه هو: نفس النظرة المشعَّة، نفسُ الملامح الدَّقيقة، نفسُ الابتسامة المبْهجة.

شعرتُ كما لو أنَّ حجرًا يسدُّ حلقي، اعْترتني الآلامُ في بطني، وبدأ قلبي يضربُ بقوَّةٍ حتى يكاد ينفجِر.

ما الذي يجري بحقِّ الجحيم؟ لم أكن أحلمُ على أية حال!

فركتُ جفنيَّ، بدأ المرضُ بنوبات الإغماء، والتقيؤ، وأوجاع شرسَة في الرأس، حالة من الغيبوبة، وبعض الثَّغرات في الذاكرة، ولكني لم أصلْ أبدًا إلى حالة التوهُّم، ولم أتعرَّض للهلوسة أبدًا.

مسحتُ حباتِ العرق التي استقرَّت فوق جبيني، وبقفزةٍ واحدةٍ خرجت من سريري، سحبتُ رداء المرضى الذي ألبسُه، وأخرجتُ طقمي الخاصَّ بالشرطة: سروالي المهترئ، قميصي، جاكيتي الجلدي، وحذائي الطويل الذي يصلُ إلى كاحلي، بينما كانتِ الممرضة تحاول إثنائي عمّا أفعله بكل الطرق.

- اعقلي يا أميرتي، لا تستطيعين.
- هذا مستشفى، وليس سجنًا! قلت بغضب بينما أغادر الغرفة.

***

3

نزلتُ السلالم الرخاميةَ التي تؤدّي إلى الطابق الأرضي، شعرتُ أنَّني أكثرُ ارتياحًا بالتخلص من رداء المرضى، شعرت أنَّني حرَّة وحيَّةٌ من جديد. توقفتُ بين طابقين بالقرب من التَّجويف الذي تمَّ فيه تركيبُ مطفأة حريقٍ كبيرة، بجانبها فوق الحائط تمَّ تثبيتُ لوحة تعليمات المستشفى في حال نشوبِ حريق، بمساميرَ صغيرة. وأيضًا مخطَّط تفصيلي للمبنى. اقتلعتُ الورقةَ البلاستيكية وحشرتها داخلَ جيبي.

كنتُ أتسكَّع في الجزء المخصَّص للإدارةِ كما لو أنَّني في فرنسا، يبدو الحالُ أنَّ في عطلة نهاية الأسبوع تُغلق جميعُ المكاتب. أدفع بابَ مكتب المدير، ثمَّ أتوقف.

لا داعي لإثارة الانتباه، لا داعي لأنْ يعاملكِ الآخرون كما لو أنك مجنونة.

أتوجَّه إلى الخارج، وأغلق سحّابَ الجاكتة. بعضُ رقائق الثلج تتطاير مع الهواء، لا يوجد أحد في الأرجاء ما عدا عاملي الحديقة، اللَّذيْن كانا يحرقان بعضَ أوراق الأشجار الميتة بعيدًا، لاحظت أنهما تركَا المفاتيح

في شاحنتِهم المتوقفة أمامَ المدخل. تسلَّلت من الباب الجانبي، كانت الشاحنة تفيضُ بأدوات البستنة، أمسكتُ بمجرفة فولاذية صغيرة بزوايا مربَّعة ومقبض تلسكوبي.

سوف تفي بالحاجة.

أغلقتُ البابَ بهدوء، وبمساعدة المخطَّط الذي بيدي التففتُ حولَ المبنى حتى نهاية جانبه الغربي، حيث توجد -حسبَ التخطيط الذي أمامي- غرفةُ الأرشيف. لاحظتُ وجودَ نافذة منخفضة أكثر من الأخريات، قمتُ بإدخال رأسِ المجرفة الحادِّ بين العوارض، ثمَّ دفعتُ بكلِّ قوتي حتى انفتحت، أخيرًا انزلقت إلى الغرفة.

لقد كانت غرفةً هائلة، تشبه مكتبةً قديمة لم يضعْ أحدٌ قدمَه فيها منذ أعوام. فوقَ الرفوف الحديدية تكدَّست أكوامٌ من الملفّات التي غطّاها الغبار، استعنتُ بمصباح هاتفي لفهْم الطريقة التي صُفّفت بها هذه الملفات، واحتجتُ لعشْر دقائق لأعثرَ على ملفِّ داميان مونتغمري، فتحته وبدأتُ في تصفُّحه، تجاوزتُ بسرعةٍ الأوراقَ والوثائق التي تخصُّ دراسته وخبرتَه كطبيب شاب: مدرسة الطب في جامعة واشنطن، طبيب متمرِّن في سياتل، سنوات تدريبٍ في عدَّة مستشفيات، ومع كلِّ مرحلة كانت توجد رسائلُ توصية، كانت خطاباتُ التوصية إيجابيةً إلى حدٍّ كبيرٍ تشيدُ ببراعة الشاب، وتعاطفه مع المريض، ودقَّة تشخيصه. عملَ داميان عامين بمستشفى الولاية بلينوكس في قسم الأورام، وهنا أيضًا كانت جميعُ تقييماته جيدة: «طبيب ممتاز»، «موثوق»، «يجيد عمله»..

على ورقةٍ إدارية، كان قد طُلب من كلِّ عضوٍ عامل في المستشفى أن يكتب رقمَ وعنوان شخص آخرَ يمكن الاتصالُ به في الحالات العاجلة، أعطى داميان رقمَ وعنوان والديه، وأيضًا رقمَ امرأة تدعى إستر كوفاكس.

حبيبته؟

طويتُ الورقةَ ودسستُها في جيبي، آخرُ مستندٍ كان طلبَ إجازة، يعود تاريخه إلى شهر أبريل 1993، يقول إنَّ المستشفى منحتْ لداميان مونتغمري إجازةً مدَّة أسبوعين من 17 إلى 31 مايو، لم يكن قدْ أخذ إجازةً منذ نويل الماضي.

أغلقُ الملفَّ على صورة داميان: نفس المظهر المحبب، ونفس العيون الضاحكة.

كم أحبُّ هذا الولد!

الشرطيَّة التي أكونها لا تحتاجُ لأكثر من ذلك لتبدأ «التحقيق». أتذكرُ مقالَ الصحيفة الذي يشير إلى التّاريخ الذي توفّي فيه: جرعةٌ زائدة، الأحد 16 مايو ليلًا، قبلَ بدء إجازته بيوم واحد، أحاول إعادةَ تصوُّر ما حدث: التعبُ كان راجعًا لضغطِ العمل، الاسترخاء والنَّشوة لفكرةِ أنه حصلَ في النهاية على إجازة. الاحتفالُ بهذا كان السببَ في الخليط المبالَغ فيه من الهيروين والكحول، عملت أربعة أعوام في قسم المخدرات، وقد مرتْ عليَّ قضايا كثيرةٌ تتعلق بجرعاتِ الهيروين الزائدة، أعرف المأزقَ القاتل: خمود تنفُّسي، غيبوبة، اختناق كلّي، لا بدَّ أن داميان كان رصينًا لبعض الوقت، ولكن في حالاتِ الانتكاس، حتى الجرعات المنخفضة جدًّا يمكن أن تكون قاتلة.

أضعُ الملفَّ جانبًا، وأواصل البحثَ بين الأرفف التي تحمل قصاصات: عام1995، عام 1994، عام 1993.

أتوقَّف أمام هذا الرف.

في 1993، كنتُ في التاسعة عشرة، كنتُ في السنة الأولى من كلية الحقوق بنيس، ذكريات مفكَّكة مِن هذه السنة راحتْ تعلو على السطح،

جائزة نوبل للسلام لماندیلا، الفترة الرئاسية الأولى لبيل كلينتون، مصافحة اليدِ التاريخية بين عرفات ورابن، تلك الروايةُ التي كتبها ويليام بويد «الظهيرة الزرقاء»، والتي أهداني إيّاها سيباستيان في نسختِها الأصلية، «درس البيانو» في السينما، «الجميع يتسبَّب في جرحنا»، هذه الأغنيةُ التي كنت أسمعُها بلا توقفٍ على مسجِّلي الصغير المحمول.

كان ذلك منذُ عشرين عامًا، كان ذلك البارحة.

رمشتُ بعينيَّ، ليس عليَّ أن أتشوَّش بأشياء هامشية، يجب أن أركزَ فقط على تحقيقي، في منتصف الملفّات كان ثمة شيءٌ يُشبه الكتابَ بغلافٍ فخم، ثمَّ اكتشفتُ أنه كان مفكرةَ مدير المستشفى آنذاك، شخصٌ يدْعى مارك هوغار، هنا حيث كتبتْ سكرتيرتُه بخطِّ طالبةٍ جميل جميعَ مواعيده وزياراته الخارجية، بينما كنت أتصفَّح المفكِّرة الكبيرة الحجم، في الفترةِ الزمنية التي مات فيها داميان، جذبتِ انتباهي ملاحظةٌ كتبتْ يومَ 17 مايو:

7:30 – موعد مع الدكتور مونتغومري.

ثمَّة شيء غريبٌ هنا، لأيِّ سببٍ قد يطلبُ داميان موعدًا في اليوم الأول من إجازته؟ التوقيت الزمني غريب! أعودُ بالزمن إلى الوراء، ولا يمكنني العثورُ على أيِّ أثرٍ لمواعيد تمَّت في وقت مبكرٍ جدًّا كهذا. الطبيبُ مارك هوغار لم يكنْ يبدأ يومَه قبلَ الثامنة صباحًا، هذا الموعد ظهرَ بشكل عاجل وضروري، لكنْ مَن الذي بادر به؟ هل كان الطبيبُ هوغار مَن استدعى داميان؟ أم داميان هو مَن طلب رؤية رئيسِه في العمل؟

هل هذه بداية مَسار في القضية؟

أغادرُ غرفةَ الأرشيف بالطريقة نفسِها التي دخلتُ بها، لقد أصبح الجوُّ أكثرَ برودة، الثلجُ مستمرٌّ في النزول، تطيرُه الرياح، وينتهي مستقرًّا على

الأرض. في طريقِ العودة إلى المدخل الرئيسي، أمرُّ بموقف السَّيارات المخصَّص لموظفي المستشفى، ألمحُ مولي باتاغليولا -ممرِّضتي المفضَّلة- وهي تدخن سيجارة، متَّكئة على سيارة بريك فولفو قديمة.

- هل هذه سيارتك؟

- نعم، إنها سيارتي الحبيبة: 500.000 كيلومتر في العداد، ودائمًا في حالة جيدة.

أشيرُ إلى السيجارة في يدِها وأقول:

- هل تُهدينني واحدة؟

- لا تفكِّري في ذلك حتَّى.. يا جميلتي.

- أرجوكِ يا مولي، أنا لستُ طفلة.

رفعتْ عينيها إلى السَّماء ثمَّ ناولتني علبةَ دخان ولفَّة من الورق.

- باتاغليولا، كُنية إيطالية في الأصل، أليس كذلك؟!

- يعود إلى سيسيليا، إنها كنيةُ زوجي الثاني.

- هل تعملين هنا منذُ وقت طويل؟

نفثتْ نفَسًا طويلًا من الدخان الذي تجمَّد بفعل البرد لبضع ثوانٍ قبل أن يتبدَّد.

- لقد تنقَّلت بين مؤسساتٍ كثيرة في هذه المنطقة، بينَ الأعوام 1980 و1990، ثمَّ تبعتُ زوجي إلى أوروبا، ولم أعدْ إلى لينوكس إلا منذُ سنتين.

- هل تعرفين جيدًا الطبيبَ مونتغمري؟

- أنتِ من النَّوع العنيد يا أميرتي، أليس كذلك؟!

راحتْ تبحثُ في ذاكرتها بالرغم من كلِّ شيء.

- سيكون من المبالغة القولُ إنَّني أعرفُه جيدًا، لكني أذكر أنه كان شابًّا لطيفًا جدًّا. طبيب محترم، ويحترمُنا نحن الممرضات على وجه الخصوص، ويحترم عملنا.

ألعقُ طرفَ الورقة لأغلق سيجارتي.

- هل تشكّين في أمر تعاطيه للهيروين؟

- ليس كثيرًا. (قالت وهي تمدُّ لي يدَها بالولاعة) كان يُعطيني في بعض الأحيان انطباعًا أنني أمام مُراهق؛ يعزف الموسيقى في البارات معَ مجموعةِ الروك التي ينتمي إليها، يحبُّ إقامة الحفلات، ولكنه كان جديًّا على الدوام في عمله.

أشعلُ السيجارة ثمَّ أخرجُ إحدى الأوراق التي سرقتُها من الملفِّ الإداري لداميان:

- إستر كوفاكس.. هل هي حبيبته؟

- ولكنْ من أين أخذتِ هذه الورقة يا عزيزتي؟ قاطعتني.

أتجاهلُ سؤالها:

- هل هي حبيبته؟

هزَّت مولي رأسَها وقالت:

- نعم، أظنُّ أنهما كانَا حبيبين. إستر هي الابنةُ الوحيدة لفيكتور كوفاكس، صاحبِ المتجر الذي على الطريق، كانتْ في السابق مغنّية في فريق الروك الشهير: بروكن كوفي ماشين.

سحبتْ نفسًا أخيرًا من السيجارة ورمَتْها ساحقةً العقبَ بحذائها:

في بداية التِّسعينات، انشرت موضةُ الجرونج[1]، كلُّ الأولاد تحوَّلوا إلى كورت كوباين[2] وكلُّ حبيباتهنَّ أصبحنَ كورتني لوف[3].

- هل مازالتْ إستر تعيش هنا، في هذه المنطقة؟
- لقد تولَّت أعمالَ والدها.
- مولي، أريدُكِ أن تُسدي لي خدمة: هل بإمكاني استعارة سيارتكِ لبضع ساعات؟
- لا يا أميرتي، هذا مستحيل!
- أتوسَّل إليكِ!
- لا، أنا لا أريد قصصًا، مازلتُ بحاجةٍ لعملي، ثمَّ إنَّ هذا خطير، لقد قرأت ملفّكِ الطبي: لا يمكننا قيادةُ السيارة ونحن نُعاني من سرطان في الدماغ، هذا خطير، وأنت تدركين ذلك.

اقتربتُ منها ووضعتُ يدي على كتفها:

- إنَّني بخيرٍ اليوم يا مولي. انْظري إليّ: أنا بكامل طاقتي! فُحوصاتي لن تبدأ قبلَ يوم الاثنين، سأعيدُ إليكِ سيارتك العزيزة خلالَ ساعتين، بعدَ ملْئها حتى آخرِها بالوقود.

---

(1) الجرونج: موضةُ الملابس المهمَلة جدًّا. وقد انتشرت في فترة التسعينيات، ويقالُ أيضًا عن أسلوبٍ موسيقي مشتقّ من الهارد روك، وكانت هذه الطريقةُ في اللباس ما يميز أفرادَ هذه المجموعات الموسيقية.

(2) كورت كوباين: كورت دونالد كوباين (20 فبراير 1967 – 5 أبريل 1994) موسيقي أمريكي، ولد عام 1967 بولاية واشنطن، يُعتبر من أهمّ مغنّيي موسيقى الروك في العالم، توفّي عامَ 1994، وهناك اختلافٌ على حقيقة أحداث مَوته. تميز كوباين كالمغني الرئيسي بفرقةِ نيرفانا حيث إنَّ صوتَه مزجَ بين الحزن والغضب والقوة والحنان، مِن أبرز أعماله معَ فرقة نيرفانا أغنية (رائحة كرائحة روح المراهق).

(3) كورتني لوف: زوجةُ المغني الراحل كورت كوبان، يعتقد البعضُ أنَّها مَن قتلته وليس كما هو مُثبَت في الأوراق الرسمية أنه قام بالانتحار.

رفضتْ مجدَّدًا، يجبُ أن أستمرَّ في المحاولة معها لخمسِ دقائق أخرى حتَّى تقتنع وتعطيني مفاتيحها.

- عِديني بأن تتَّصلي بي عندَ مواجهة أقلِّ مشكلة. طلبتْ بإلحاح وهي تصرُّ على أن أسجِّلَ رقمَ هاتفها المحمول على هاتفي.
- أعدكِ! قُلت.
- وخذي معكِ هذه المجرفة، في حالِ تزايدت الثلوج!

***

4

ألقيتُ نظرةً على المستشفى وهو يصغرُ في المرآة الخلفيَّة الداخلية. كلَّما ابتعدتُّ كلَّما بدا لي البناء بجناحيْه القوطيين أشبهَ بخفاش، كانَ هذا يمنحني قشعريرةً ، لأشعر بالدفء؛ ضغطتُّ على زر التدفئة، أشعلتُ الراديو ورحتُ أقلِّب المحطاتِ حتَّى وصلتُ إلى محطة كانت تبثُّ موسيقى هادئة.

لم أكذبْ على مولي، حتى وأنا أعرف أنَّ هذا لن يدوم، إلا أنّي كنتُ أشعر فعلًا أني بخير، بخير في الحدودِ التي أستطيعها في الوقت الحاضر، مَرَضي يتقدَّم بطريقةٍ مُحبطة، تجعلني غيرَ قادرة على الجزم بشأنِ أيِّ شيء. كنتُ أصحو نصفَ مشلولة في بعض الصَّباحات، لا أرى جيدًا، وغيرَ قادرة على تنسيقِ حركاتي، هذه الحالةُ يمكن أن تدومَ لأيامٍ عديدة، ثمَّ ينخفضُ الخدرُ ويتلاشى ببطء، مُهديًا إياي هُدنة مؤقتة.

لا وجودَ لجهاز جي بي إس في هذه السيارة، أفتحُ هاتفي المحمول وأكتبُ العنوان الذي أعطته لي الممرِّضة، أغادرُ الغابةَ بسرعة وأجدُ نفسي على الطريق السريعة عددَ 900، والتي تؤدّي إلى المدينة.

خلالَ أقلِّ من عشرين دقيقة، أركنُ السيارة في موقفِ المغازة العامَّة التي على الطريق، ثمة مراهق يتكئ على مضخَّة بنزين منتظرًا أحدَ الحرفاء، أعطيه المفاتيحَ وأطلب منه ملء السيارة بالبنزين، ثمَّ أدفع بابَ المغازةِ التي تبدو من الخارج أشبهَ بكوخ يتَّجه إلى الطول، ولكنْ من الداخل هو متجرُ بقالة عصريٌّ حقيقي. بطْني تُقرقر، أشعرُ أنّي جائعة مثلَ ذئب، أفتحُ إحدى الثلاجات، وأختار شطيرةَ بسطرمة وزجاجةَ مشروب غازي، أدفعُ ثمنهما ثمَّ أستقرُّ على أحد الكراسي، خلفَ المنضدة الخشبية ألمحُ على الفوْر مَن أبحث عنها. لو سنحكُم عليها من مظهرها ولباسِها، فإنَّ إستر كوفاكس ظلت عالقة في منتصفِ سنوات التسعينيّات: قميص بمربَّعات حمراء وزرقاء، سروال قصير ممزق من الجينز، جوارب نسائية شفافة بنفسجية اللون.

طلبتُ منها علبةَ سجائر، وعندما تقدَّمت لأدفعَ أخرجتُ بطاقةَ الشرطة مجازفةً بكلِّ شيء:

- سيدة كوفاكس، اسمي كونستانس لاجرانج، وأنا شرطيةٌ فرنسية، أحقِّق في حادثة موت داميان مونتغمري.

نظرتْ إليَّ ولكن دون حدَّة:

- هل والداه هُما مَن كلَّفاكِ بهذا العمل، أليس كذلك؟!

خمَّنت أنها تتعاملُ معي بوصفي محقِّقة خاصَّة، أتركُ لها أن تعتقد ذلك.

- نعم، بالضبط.

- سام وليلي لم يقومَا أبدًا بعزاءٍ لابنهما الوحيد، لم يصدقَا قطُّ أنَّ داميان مات بجرعة زائدة.

- وأنتِ؟

ضربتْ على رأسها:

- ولا أنا. لم يكن داميان ملاكًا، لقد كان يشربُ أشياء ثقيلة، ويدخِّن كثيرًا من الأعشاب، ولكنه لم يقتربْ من المخدرات، الهيروين على وجه الخصوص.
- هل كنتما تسكنانِ معًا في شقتِه عندما حصلت الحادثة؟
- لنقل إنَّه هو مَن كان يسكنُ معي، ولكنه كان يعودُ إلى بورتلاند كلَّ نهاية أسبوع ليزور والديه.
- ألم تكوني معه في الليلة التي ماتَ فيها؟

أغمضتْ عينيها، وفركَتْ جفنيها، ثمَّ قالت:

- بعد أن قضى يومَ الأحد في بيت والديه، أخذَ القطار المساء وعادَ إلى سياتل، في نهاية الأسبوع تلك، كنت أنا في ساكرامينتو، إحدى صديقاتِ الجامعة كانت تقيم حفلَ نهاية عزوبية، لم أعدْ إلى الشَّقة إلّا صباحَ الغد، وكنت أنا أولَ مَن اكتشف جثته.
- كيف كان جسدُه عندما وجدتِه؟
- كان ممدَّدًا على الأرض، وحقنةٌ مغروزة في ذراعه.
- هل حصلَ تشريحٌ للجثة؟
- كلّا، وجدتِ الشرطة كمياتٍ صغيرةً من الهيروين في الغرفة، معَ أدوية مخدرة أخرى، مضادات للاكْتئاب وغيرها، زعَموا أنه سرقَها من المستشفى، كان هذا كفيلًا حتَّى يصلوا إلى استنتاج، لم يرغبوا حتَّى في سماعي وأنا أحدِّثهم عن السرقة.
- أيَّ سرقة؟
- القرصُ الصلب لحاسوب داميان، وكلُّ الأسطوانات والأقراصِ الصغيرة كانت مفقودة.

- ما كان نوعُ الحاسوب؟
- آتاري 1040، إنه يُستعمَل خصوصًا مثلَ استوديو منزلي: كان داميان يوصلُ قيثارته به ويسجّل عيناتٍ من أغانيه.

الأتاري. لقد امتلكتُ أنا كذلك واحدًا، كان هديةَ رأس السنة من والديّ، لي ولأخي عام 1989، وقد قضينا ساعاتٍ وساعات في اللعب عليه.

- لا أفهم! (قُلت) في حالة سرقةٍ كهذا كان من الضَّروري أن تفتحَ الشرطة تحقيقًا، ولماذا رفضوا القيامَ بتشريح للجثة؟

بدتْ نظراتُها مشوَّشة، ثمَّ تنهَّدت وأخفضتْ رأسَها:

- لأنَّه في وقتٍ من الأوقات كنتُ أنا مَن يتعاطى الهيروين، وكان الجميعُ يعرف ذلك، نادرًا ما تثقُ الشرطةُ بمدمن.
- نعم، يمكنني أيضًا أن أؤكدَ ذلك، إذًا هل كان الهيروين الذي وجدوه يخصُّك؟
- لا، بالتأكيد! وهنا تكمنُ الغرابة! لأنَّني تمكنتُ من الإقلاع بفضْل داميان منذُ أكثر من عام! ولكنَّ الجميع يعتقد أنَّني مَن أقحمُه في عاداتي السيئة.

أخذتُ رشفةً من المشروب الذي أمامي:

- ماذا كان يوجَد على ذلك القرص الصلب؟
- أغانيه التي يؤلِّفها، دروس الطب، مشروع تخرجه..
- هل مازلت تحتفظينَ بالحاسوب؟
- هل تتوهَّمين أم ماذا؟ لقد بعتُه بالطبع لبائعِ خُردة متجوِّلٍ منذُ خمسة عشَر عامًا على الأقل.

***

5

عدتُّ إلى السيارة وألقيتُ نظرةً على الساعة التي بداخلها؛ ستحلُّ الساعة الرابعة قريبًا، لقد وعدتُّ مولي بأن أعيدَ لها سيارتها، ولكنَّني شرطية، والشرطيُّ لا يلتزم عادةً بوعوده، الشرطي يذهبُ إلى آخر نقطةٍ في تحقيقه. شغلتُ المحرك وانطلقت، توقَّف سقوطُ الثلج، والجوُّ أصبح دافئًا بعضَ الشيء، رغم ذلك ما يزال الأسفلت زجاجيًّا، عليَّ استغلالُ الفرصة للذهاب إلى بورتلاند.

تفقَّدتُّ بطاريةَ هاتفي، إنَّها توشك على النَّفاد، أحاول استغلالَها على النهاية وأكتبُ عنوانَ والدي داميان على محركِ البحث في جي بي إس، آملةً أنَّهما لم ينتقلَا إلى مكانٍ آخر خلالَ هذه السنوات.

أتَّصل بمولي حتى أطمئنَها، وأشرح لها أني مازلتُ أحتاج سيارتها لوقتٍ أطول، بعدَ استغراق وقت في توْبيخي، منحَتني موافقتَها، قائلة إنَّ إحدى زميلاتها سوف تقلُّها إلى البيت، ثمَّ أرسلتْ لي رسالة نصيَّة كتبتْ فيها عنوانَها وهي ترْجوني أن أعيدَ سيارتها إلى هناك في المساء.

مرَّت الساعتان والنصف التي استغرقتْهما الرحلةُ إلى بورتلاند الشمالية بسرعةٍ شديدة، بدَا لي مرضي كما لو كان مجرَّد ذكرى سيئة، كنت أستمعُ إلى الراديو، أغنّي وأهزُّ رأسي، مدخِّنةً السجائر في نفس الوقت.

كنتُ أتوق لأنْ أجمعَ قطعَ البازل في تحقيقي، بداخلي شيءٌ يرفض أن يصدِّق قصةَ الأقراص المضْغوطة التي سُرقت، يحمل الناسُ بداخلهم جزءًا قاتمًا، سريًّا، لا يقبلُ الإفصاح، فبعد كلِّ شيء، ورغمَ ما يوحي به داميان من شخصيةٍ ملائكية، لا بدَّ وأنه يقع من وقتٍ لآخر في فخِّ المغامرة والظُّهور مثلَ بطلٍ عبرَ سرقة بعض الأشياء من صيدلية مكانِ

عمله، ربما تفطن المديرُ في وقتٍ من الأوقات لما كان يفعله، وقرَّر مواجهتَه بأفعاله، وهو ما يفسرُ الموعدَ المستعجل الذي كان بينهما في ذلك الصباح، احتمالُ حدوث فضيحةٍ هو ما هزَّ داميان وزعزع استقرارَه لدرجة جعلته يحقنُ جرعات كثيرة.

***

ليلاك لان، هو دربٌ واسع تحيط به بيوتٌ متطابقة، حولها أشجارُ البلوط وشجيرات ورد، الليل حلَّ، أوقفتُ السيارةَ على حافَّة الرصيف، ونظرتُ إلى الاسم المكتوبِ على صندوق الرسائل عدد18، عندئذٍ أخذتُ نفسًا عميقًا بارتياح، هذا هو بيتُ مونتغمري، لكن كلُّ أضوائه مُطفأة، أضغط على الجرس، مرَّة.. مرتين، لا أحد يجيب، لا نباح.. لا جيران.. أعاينُ ألّا أحد يراني، وأقفزُ بسرعة على سورِ الحديقة.

ليسَ هذا النوع من المنازل المتواضعة التي سيكون لديها جهاز إنذار.

كان الأمرُ كما لو أنَّ أحدًا أرادَ يسهّل عليَّ مهمَّتي، إذْ عثرتُ على سلم أسفلَ الجدار، صعدتُ درجاتِه حتَّى وصلت إلى مستوى ارتفاع إحدى نَوافذ الطابق الأول، بضربةِ مرفقٍ واحدة تطاير الزجاجُ في الهواء، عاينتُ مدى ارتفاع المنطقةِ الداخلية التي سأنزلُ فيها، ثمَّ انزلقتُ إلى الداخل، كان الضوءُ الخافتُ من مصباح الشارع كافٍ للسَّماح لي بفحْص المكان. فهمتُ أنَّني في غرفة نوم الأبوين، كنت تقريبًا أتلمَّس طريقي للخروج إلى الممرّ، وكما لو أنَّني زرتُ هذا المكان من قبْلُ قادتني قدميّ إلى إحدى الغرف.

***

مُتحف حقيقي..

ترتيبُ وديكور غرفة داميان القديمة بقيَا على حالهما، وتمَّ الحفاظُ على كلِّ شيء مثلما هو، غرفة حقيقيَّة، نمطيةٌ لمراهقٍ في بدايات عام 1990. في إحدى الزوايا، كان يوجَد قيثار إلكتروني، مسجِّل وحاملُ أسطوانات ومكبِّر صوت، على الرفوف، كانت تقفُ صفوفٌ عمودية لأقراص موسيقية كثيرة، وعلى الجدران ألصقتْ بوستراتٌ لفرق الروك (ساوند غاردن، أليس إنشين..)، ملصق الأفيش لصمتِ الحمْلان، صورةٌ إعلانية لمايكل جوردن، صورةٌ أخرى أكثرُ شاعرية لباميلا أندرسون.

عصر كامل..

لا بدَّ وأنَّ والدة مونتغمري تعيش في وهْم أنَّ ابنَها المحبوبَ لم يغادر سوى لبضعةِ أيام وأنه سيعودُ مع غسيلِه المتَّسخ في عطلة نهاية الأسبوع القادم.

أجلسُ على الكرسي ذي العجلات، وأمامي على المكتبِ حاسوب، أخاطرُ بإشعال لمبة المكتب وأحاولُ أن أفهم، لماذا يمتلك حاسوبيْن؟ نفسُ العلامة التجارية ولكن ليس نفسَ النموذج. حدَّثتني إستر عن أتاري 1040، وهذا 520، نسخة أقلُّ قوة أو أقدم.

بدَا من الأكيد أنَّ لداميان جهازين؛ جهاز في منزل والديه، وآخر اشتراه لنفسِه بعد ذلك. على الطاولة وجدتُّ علبةً من الأقراص الليّنة، أحاول تشغيلَ الجهاز، علا صفيرٌ خافت، يصاحبه صوتُ اشتغال الآلة، ثمَّ فجأة.. فرقعة صغيرة، صوتُ احتراق مصباح كهربائي.

اللعنة..

أغمضُ عينيَّ، وأجهدُ نفْسي لاستخراج منطق وسطَ هذا كلِّه، يمتلك داميان جهازي حاسوب، يستعملُهما بشكلٍ مختلف، في بيته، أو بيتِ

والديه، ليحفظَ أعماله الفنية على الأقراص. في اليوم الذي ماتَ فيه، جاءَ إلى هنا، لنتخيَّل أنه بدأ العملَ على شيء ما، مجموعة من الملفّات التي جلبَها معه من سياتل مثلًا.

أفتحُ الدرجَ الأول، الذي كنت سأضعُ فيه عملي قيدَ التنفيذ، إنها فوضى لا يمكن وصفُها: أقلام، ومقص، ودباسة، ومجلات، ولكن قبل كلِّ شيء عشراتُ وعشرات الأوراق: نسخ مشروحة عبرَ هوامش كثيرة، ومغطّاة بالملصقات الصغيرة التي تحمل ملاحظات.

أعرفُ أنّي على وشكِ اكتشاف شيء مُهم، وأستشعر دفقةً من الأدرينالين؛ الهيروين الخاص بي.

أجمعُ الوثائق، لغتي الإنجليزية ليستْ سيئة، ولكنني أركزُ على المصطلحات الطبية. خلالَ وقت قصير، فهمتُ أنها وثائقُ مصوَّرة من ملفات مريضيْن في المستشفى الحكومي للولاية؛ الأول، هو شارل سنو، 68سنة، توفّي في شهرِ أبريل من سنة 1993، متأثرًا بالتهابٍ رئوي. أمّا الثاني فهو آلان لويس، 71سنة، وتوفّي بسبب أزمة قلبية في شهر يناير من سنة 92، مرضَى اعترضوا داميان أثناء مناوباته اللّيلية دونَ أن تكون لهم صلةٌ مباشرة بقسمه.

تحمل كلُّ ورقة ملاحظاتٍ كُتبت بقلم الحبرِ الجاف، أحاول فكَّ شيفرات كتابة داميان، وأركز على العباراتِ التي وضعَ تحتها خطًّا. توقَّفت عندَ عبارة مسطَّرة في حالة المريضِ الأول: «موت مريب»، «حقن كمية هائلة من عقار الديجوكسين تسبَّب في توقف القلب»، بالنسبة للمريض الثاني: «حقن كميَّة كبيرة من عقار الابينفرين»، «لم يمتِ المريض ميتةً طبيعية»، ثمَّ يتكرَّر نفسُ الاسم مسطَّرًا باللون الأحمر في الحالتين: «الممرِّضة كاثرين كويلر».

6

- كاثرين كويلر، أعرفُها بالطبع! إنها واحدةٌ من ممرضات هذه المستشفى القديمات!

تشيرُ الساعة إلى العاشرة والنِّصف مساءً، كنت متكورةً داخلَ غطاءٍ صوفي على إحدى الأرائك في صالون مولي باتاغليولا. كنت أشعرُ بالبرد الشديد، ففي الوقت الذي كانت تثلجُ فيه بغزارة في طريق عوْدتي إلى سياتل، حصلَ عطبٌ في سخانِ السيارة، وبدلَ الهواء الساخن بدأ يخرجُ منه هواء مثلج، ولكنْ لحُسن الحظِّ لم تكنْ صديقتي الجديدة غاضبةً منّي كثيرًا، حتى إنَّها أعدَّت لي كأسًا من الشوكولاتة الساخنة.

فردتُّ الأوراقَ المطبوعة على الطاولة القصيرة أمامي، ورحْتُ أشرحُ لها:

- أفهمُ الآن لماذا قُتل داميان مونتغمري! لقد كان على وشكِ اكتشاف «ملائكة الموت»: كاثرين كويلر؛ ممرِّضة في المستشفى كانت تحقنُ عقاراتٍ معينة لبعض المرْضى ليتعرَّضوا إلى أزمات قلبية مميتة!

نظرتْ مولي إلى الملاحظاتِ المدوَّنة على الورق بكلِّ انتباه وتركيز:

- هل أنتِ متأكدة مما تقولينه؟

- أنا متأكدة من ذلك، إلى الحدِّ الذي يجعلني أجزمُ أنَّنا لو فتَّشنا أكثرَ سوف نعثرُ على حالاتٍ أخرى للموت المشْبوه، ولو ستقولين لي إنَّ هذه المرأة مازالت تعملُ حتى اليوم فأنا متأكدة أنَّها لم تتوقفْ عن فعل ذلك حتَّى الآن، علينا إخبارُ الشرطة فورًا!

- لعلَّك على حق يا أميرتي، دعيني أصلحُ سخانَ سيارتي الصغيرة، ثمَّ لنذهب معًا إلى مكتب الشرطة.

لبستُ معطفًا بحجم كبير، واقيًا للمطر، وخرجتُ رغمَ استمرار تساقط الثلج.

نهضتُّ، لبستُ حذائي مجددًا، وأخذت رشفةً من الكاكاو الساخن، حملتُ الكأس بيدي، واقتربت مِن النار التي تشتعل في المدفئة.

على رأس المدفئة، لمحتُ صورةَ زفافٍ لمولي، بدتْ حديثة: أربعة أو خمسة أعوام ربما، بدَا لي أنني تعرَّفت على المكان؛ اليونان، أو أقصى جنوب إيطاليا، عادت جملةٌ إلى عقلي، جملةٌ لم أعرْها اهتمامًا كبيرًا: «باتغليولا، كنية تعودُ إلى سيسيليا، إنها كنيةُ زوجي الثاني».

منذُ عشرين عامًا لم تكنْ مولي تحمل إذًا هذه الكنية.

بسرعةٍ بعدَ ذلك مثلتْ صورةٌ شديدةُ الوضوح في عقلي، تلك صورةُ شارة الانتساب للمستشفى، التي تحملُها دوما فوقَ ردائها الأبيض، يومَ رؤيتها للمرة الأولى:

ك.م، باتغليولا

استقرَّت عيناي على إطارٍ معلَّق في مكان أبعدَ قليلًا، دبلوم تمريض.. أقرأ ما كتب عليه بهلع:

مدرسةُ الممرِّضات لجامعة واشنطن

تمنَح من خلال هذه الشهادة

للآنسة كاثرين مولي كويلر

الحقَّ في حمل لقبِ ممرِّضة متخرِّجة من مؤسسة حكومية.

أقفُ متحجِّرة.

أسمعُ خلفي صوتَ إغلاق الباب.

ألتفت، فأجدُ مولي على بُعد أقلِّ من مترٍ واحد منّي، ملامحُها غريبة، متغيّرةٌ بسبب الغضب الشديد، والكراهية.

كانت تحمل مجرفةَ الثلج في يدها، والتي أخذتْها بلا شكٍّ من صندوق سيارتها الفولفو، مجرفة حديدية ذاتُ زوايا مربَّعة، وبمقبضٍ تلسكوبي ترفعه بطول ذراعها.

مجرفةٌ حديدية رأسُها حادٌّ وقاطع يسقط عليَّ مثل البرق.

كارولين لامارش

ولدتْ كارولين لامارش في ليج في 3 مارس 1955، وهي كاتبةٌ بلجيكية تكتب باللغة الفرنسية.
ألَّفت الروايات والقصَص القصيرة وأدب الأطفال والقصائد والمسرحيات الإذاعية ونصوص المسرح، بالإضافة إلى المقالات الصحفية.
في رصيدِها ما يزيدُ عن 16 رواية، من بينها رواياتُ الناشئة، و5 مجموعات شعرية، وأربعُ مجموعات قصصيَّة، من بينها مجموعتُها الشهيرة «نحن على الحافة» الصادرة عام 2019، والتي تحصَّلت على جائزة الغونكور الفرنسية للقصَّة القصيرة، كما حصلت أعمالها على عدةِ جوائز أخرى.

إيلي

في ذلك اليوم، بالعودةِ من منزل إيلي -تشاجرنا مرَّة أخرى بعنف ثمَّ تصالحنا على الأريكة-، أدركت أنَّ هذا يجب أنْ يتوقف؛ هذا التعب، هذا الإحساس بالتَّخدير، هذه الطريقة في التحرك ببطء شديد، مثل محرّكٍ توشك صلاحيتُه على الانتهاء.

أَسيرُ إلى منزلي، كانت أشجارُ الحور على جوانبِ الطريق تُحدث أصواتًا بكلِّ أوراقها الصغيرة المنتعشة، وهذا البذخُ سريعُ الزوال الذي لن يدوم أكثرَ من أسبوع واحد، هذا الإشراق الذهبي الذي سيصبحُ قريبًا بقعةً بسيطة من اللَّون الأَخضر ألقى بي في مكانٍ آخر، مكان سأتمكن فيه أخيرًا من أن أكونَ حُرَّة.

شعرتُ باللحظة التي سيحدثُ فيها هذا، عندما يستعيدُ ذهني صفاءه وقدرتَه على الإعجاب بأشياء بسيطة، والاندهاش بسهولة، يكفي من أجل ذلك أن أقطعَ بسرعة. منذُ بعض الوقت، بالفعل، كان إيلي يكرّر أنه يريدنا معًا «نحن سعداء معًا بكلِّ بساطة»، الحبُّ ليس من ضمن الأَشياء البسيطة، ليس بالنِّسبة لي على الأَقل.

عليَّ إذًا أن أقرّر أن أقول له، ودونَ نقاشٍ جديد: «انتهى الأمر»، كنت أتوقعُ الأمرَ بالفعل: يبدو أن المناظرَ الطبيعية المضيئة، التي تزدهرُ مبكرًا، تقودني مباشرةً إلى هناك.

المشكلةُ هي أنَّ هذا الارتياح -كما أعلم من التجربة- يدومُ لفترةٍ قصيرة فقط، يعقبه مباشرة انزعاجٌ عميق، فراغٌ قاتل، ثمَّ الرغبةُ الملحَّة في مناداة حبٍّ جديد، أقول «مناداة» وليس «البحث» لأني في واقع

الأمر حذرةٌ ومتجنّبة، أنا مخلوقةٌ هكذا، الحبُّ لا يجعلني أكثرَ من ورقة رقيقة جدًّا يأكلها الطقسُ القاسي، وتحملها الرياحُ العاتية، يأتي الوقتُ الذي أتوقُ فيه إلى السقوط، والهدوء، والعزلة، لكن مع إيلي لم أستطعْ أن أقول: لقدِ انتهى الأمر. لأوَّل مرةٍ في حياتي يمنعني شيءٌ ما بداخلي من الاستجابة لنداءِ الراحة، أفضِّل الموتَ من العذاب.. على أن أتخلى عنه.

كنتُ عاجزةً حتى الموتِ عن الحسم، عندما التففتُ حولَ الحديقة العمومية، على أحد المقاعد الخشبيَّة أغمضتُّ عينيَّ. كان الهواء رقيقًا، الشمس تُداعبني، تساءلت إن كنتُ أقدر ولو لمرَّة في حياتي أن أنجحَ في إدارة القطيعة، التعامل مع شتاءِ المشاعر، التطهُّر من الداخل عبر الفراغ، والبقاء معَ إيلي «لأننا سعداء معًا بكلِّ بساطة»، في فصل واحدٍ ووحيد، الأخضر فيه مُشعّ، ثابت، لا نهائي.

فتحتُ عينيَّ مجدَّدًا، البراعمُ مستمرَّة في التفتُّح بشكلٍ واضح للعين، التهمَ أخضرُها الفسفوري كلَّ الفضاء بشَرِه، أمامي. تحديدًا عند قدمي، تخبَّطت فراشةٌ مصارعةً الموت، كانت سوداءَ وذهبية، مع حوافّ بيضاء تحيط بأجنحتِها التي بالكاد كانت ترفرف، فقستْ بسرعة، خدعتْها الشمس الجشعة، ظللتُ أراقبها مردِّدةً بخفوت: «إيلي، إيلي، إيلي»، كما لو كنتُ من خلال هذا الاسم الذي يمثِّل هوسًا لي، أنْ أجعله دافعًا للتحليق، وأن أتوسلَ إليها أن تبذلَ قليلًا من الجهد الإضافي حتى تعيش.

لكنْ بلا جدوى، أحنتْ أجنحتها مُرتجفة، تحوَّل لونُها إلى الرمادي، واختفى الأسودُ والذهبي بداخلها، استلقتْ مثلَ قاربٍ ضربه الإعصار، خفيفة إلى حدٍّ لا يطاق.

في قصَّتي مع إيلي، قلتُ لنفسي: إنَّ هناك شيئًا ما على وشكِ أن يصل إلى ذروته، وأن يؤتي ثمارًا وأزهارًا. السعادةُ بعبارة أخرى -وكان لهذه

الكلمة معنى- تطرقُ بابي من جديد، ولكن هذه هي الحال: في لحظةِ الاختيار الهشَّة تُحني فراشةٌ جناحيها وتموت.

في اللَّحظة التي توقفتْ فيها الفراشةُ تمامًا عن الارتعاش، هاجمتني ظاهرةٌ غريبة، كان لدي شعورٌ بالانهيار، كما يحدثُ عندما تحاول عقولُنا بمشقَّة تخديرَ نوعٍ كبيرٍ من الألم. على منظر طبيعي متراكم، كان ثمَّة ما يُشبه الفيلمَ غير المرئي، الذي يشكِّل طبقةً من زجاج أو ثلج، على الرغم من حركة الأغصان وحفيفِ أوراق الشجر الفتيَّة.

فكرتُ في عبارة: «قدّيسي الجليد»، الذي يشيرُ إلى تلك اللحظة من الربيع، حيث يستطيع الطقسُ -بالرَّغم من ذلك- أن يبردَ على حين غرَّة، ويجمِّد طبيعةً في أوْج إزهارها، ما حصل لي كان اجتياحًا أكثرَ منه أمرًا غريبًا؛ انفصلتُ عن العشب، والزهور والأشجار، بجدار زجاجي، كنت أرى حركةَ الأغصان، تفتُّحَ البراعم، لكني لم أكنْ أشعرُ بشيء.. لا الريح، ولا الروائح، ولا أسمع شيئًا، لا شيء على الإطلاق، لا العصافير التي تزَقزق، ولا السيارات التي كنتُ أراها تعبرُ الطريق، بدَا كلُّ شيء مجرَّدًا مُنفصلًا، ناعمًا وصامتًا، أغرقني سلامٌ محيِّر بكاملي.

قلتُ لنفسي: «هكذا سوف تموتين».

كنتُ وحيدة، في الليلة التالية، ليس عندي أيَّة أخبارٍ عن إيلي، أيقظني اضطرابٌ شديد العنف لدرجةِ أنَّني اعتقدتُّ أنني أفقدُ حياتي. أتذكرُ الغثيان والتعرقَ الشديد والوهجَ والألم في صدري كما لو أنَّ يدًا تضغط على صدري بشراسةٍ لا توصَف. ظننتُ أنَّ قلبي سيتوقف، أو أنه سينجرفُ حتى يخرج مِن صدري، «إني أموت»، قلتُ لنفسي، دونَ مَن يشهد على ذلك سواي، في محاولةٍ يائسة لجعل هذه الكلمات واضحةً ومميَّزة، لكنَّ صوتي لم يسعفني على الإطلاق.

وفجأة، أدركتُ أنَّ رؤية اليوم السابق، السلام الخارق الذي حلَّ عليَّ بهذه الفكرة: «هكذا سوف تموتين»؛ كان بمثابة نبوءة، هذه الليلةُ ستكون آخرَ ليلة في حياتي.

قمتُ بأمنيةٍ مضطربة وصادقة: لو نجوت وكُتبَت لي الحياةُ سأقول أخيرًا لايلي: «علاقتنا انتهت».

ثمَّ عدتُّ إلى النوم.

عندما استيقظتُ، تذكَّرت حلمًا؛ كنتُ أمشي مع إيلي داخلَ قلعةٍ مَهيبة ومُذهلة الجمال. أبرزُ وأجمل ما فيها كان درجًا حلزونيًّا مزدوجًا، باهتٌ من جانب، لامعٌ من الجانب الآخر، مثلَ جانبي جناح الفراشة. رحْنا نصعدُه وننزله من الجانبين، بلا كَلل، وكان كلُّ هذا لطيفًا وآمنًا.

رافاييل هاروش

رافاييل هاروش، المعروفُ باسْم رافاييل، مغنّي وكاتبُ أغانٍ وموسيقي وكاتبٌ فرنسي. ولد في 7 نوفمبر 1975 في باريس. بدأت مسيرتَه الفنية عامَ 2005، أصدرَ خلال سنوات عديدَ الأغاني والألبومات يزيدُ عددُها عن 13 ألبومًا. وشارك في مهرجاناتٍ فرنسية وعالمية. كانت له تجارب مسرحيةٌ وسينمائية أيضًا، ولكنَّ مسيرته الأدبية بدأتْ عامَ 2017 عندما أصدر مجموعتَه القصصيَّة «العودة إلى البحر» والتي لاقتْ نجاحًا كبيرًا من القراء والصَّحافة، وتحصَّلت على جائزة الغونكور الفرنسية للقصَّة في نفس العام، تلتها مجموعةٌ قصصية ثانية، ورواية.

العودةُ إلى البحر

أجلسُ على حافَّة المسبح، الضوءُ غامرٌ مُشع، يبدو لي أنه يجعل الأشجارَ تهتز، عيناي تحترقان، وتعبُ السَّفر والوجود يثْقلان عليَّ أكثرَ من أيّ وقت مضى.

لماذا لم أفكّرْ في جلْب نظاراتي الشمسية معي؟ لطالما نسيتُ أكثرَ ما أحتاج إليه.

وصلْنا قبلَ يوم واحدٍ عبرَ القطار. كانت المحطةُ مزدحمة، وكنت أحملُ حقيبتين ضخمتين مليئتيْن بالثِّياب المتَّسخة والمجعدة، وعددٍ جيد من الكتب تكفيني لعدَّة شهور. أقرأ دائمًا عدةَ كتبٍ في وقت واحد، لكنّي غالبًا لا أُنهي أيًّا منها، لا أستطيع مواصلةَ التركيز لوقت طويل.

لم يعلنوا بعدُ عن موعدِ القطارات، وتحت شاشة مواعيدِ الرحلات، كان الزحامُ يشتدُّ أكثر فأكثر. شابٌّ أسود يعزف البيانو في الصالةِ الكبيرة، أصابعُه تحلق، كان يعزفُ بشكلٍ خلّاب على هذا البيانو غيرِ مُتناغم الأصوات. يرتفع حزنُ شوبان للحظة ثمَّ يتلاشى في المحطة دون أن يصلَ إلى أحد.

ما إن ظهرتْ مواعيدُ الرحلات على الشاشة، حتى تفرَّقت كتلةُ الأشخاصِ منطلقين في حركة سريعة، كلٌّ في اتجاه. موجةٌ غامضة ومُهلكة من البشر، نساء ضئيلاتٌ مستعجلات كنَّ في الأمام، خائفات مِن تفويت قطارهن، مررنَ في مسارٍ مقابل لنا، ورأيتُ في عيونهنَّ أنَّ بإمكانهن العبورَ فوق أيّ كان، فعل أيّ شيء، مقابلَ بلوغ وجْهتهنّ، تتبعْهُن أخريات، ولكنْ يمشينَ بوقار واحترام.

أتبعُ حركةَ الجمهرة التي تتموَّج. كانت أمي تتقدَّم بجانبي، لم تكنْ تمشي بالسرعة الكافية التي أريدها، كانت تتبعني وهي تجرجرُ حقيبتَها القديمة، الأشبهَ بحيوان يُسحَب إلى ساحة الموت الرحيم.

أنظرُ إلى جسدها الصغيرِ الهشّ والقصير، وأخجلُ من نفسي، لقد بلغتُ هذه السِّن ومازلت أسافرُ معَ أمي.

لا بدَّ وأنَّ المراقب في القطار قد وجدَها مسنَّة جدًّا؛ لأنَّه ساعدَها في الصعود مع أمتعتها على السلالم المؤدّية إلى قسم القطار العلويّ، وقد جنَّبني من أنْ أقوم أنا بذلك.

جلسنا، أحدُنا مقابلًا للآخر، ثنتْ ساقيها حتَّى لا تزعجني. كانت تحمل كيسًا بلاستيكيًّا فيه أكل وملابس، حشرتْه بجانبها.

موكبُ المناظر الطبيعية في الضواحي يظهر وهي تغطُّ في نوم عميق، مقابلة لي تقريبًا، وجهُها الطيب يتدلَّى من فوق كتفيها، فمُها ذو الشفاه الرقيقة يرتعشُ بسبب اهتزازات القطار، أو حلمها، ثمَّ بدأت تشخرُ مُصدرةً صوتَ صفيرٍ حاد، مثلَ حيوان مثقل بالشعب الهوائية.

هنالك أماكنُ شاغرة في آخرِ القطار. أقرّر الابتعادَ لأرتاح بعضَ الشيء، لم أنمْ منذُ وقت طويل، أجلسُ مجدَّدًا في الكرسي المواجه للممرّ.

في الجهة الأخرى، ثمة فتاةٌ بشعْرٍ بنيّ تقرأ جريدة، لم تكنْ بشعةً ولا جميلة، بقعٌ من النمش تعلو وجهَها، ورأس كبيرة جدًّا مقارنةً بجسمها، ولكنْ ثدياها كانا ناهضين تحتَ قميصها، وكنت أنظرُ إليهما، لقد مرَّ وقت طويل عن آخرِ مرَّة لمستْ فيها ثديًا. أسحب أكمامي حتَّى لا ترى الضمادات على معْصميّ، كان لديْها علبةٌ صغيرة تضعها بجانبها، لا أعرف ماذا يمكن أن تكون، لكنه مكعبٌ حديدي رماديُّ اللون، هل يمكن أن يكون حيوانَها الأليف؟ هل هي جرة جنازة؟

نظرتُ إلى الفتاة عدةَ مرّات، لكنَّها لم تبادلني النظراتِ على الإطلاق، تبدو سويسرية، ثمة شيء متطلب في أعماق عينيها.

أغفو تحتَ تأثير حبَّة منوم، لكنني أستيقظُ بسرعةٍ على صوت إعلانٍ للمسافرينَ بأنَّ أحدَ عمال التَّرفيه سيمرُّ من بيننا ليقدِّم فقرةً ترفيهية، مشهد هزلي حتى لا نشعرَ بالملل.

اغتنمتْ أمي الفرصةَ لتقترب منّي، أتظاهرُ أنني نائم حتى لا تلاحظَ الفتاةُ أنها تصاحبني، رجل في الأربعين، وحيد، برفقةِ أمّه العجوز، الأمرُ ليس خطيرًا.. لكنّي لا أعرف لماذا أشعرُ بهذا القدر من الخجل، مثلَ تلميذِ مدرسة ابتدائية.

أبقيتُ عينيَّ مُغمضَتين، وكنت أشعرُ بأنفاسها الدافئة فوقَ وجهي. بعد دقائق طويلة، أفتح بالكاد جفوني، مثلَ ممثل سيّئ، فألمح وجهَ أمي مائلًا على وجهي، محتفظًا على الدوام بمسحته الطيبة الراعية، أذناها كبيرتان بشكلٍ غير مُتناسب، كأنَّها خياشيم، إذا كان على البشر أن يعودوا يومًا إلى البحر فسيكون لديها فرصةٌ أفضل للبقاءِ على قيد الحياة مقارنةً بالنساء الأخريات في مثل سنِّها.

- كم تبدو جميلًا يا حبيبي!

ثمَّ ابتسمت، وشعرتُ أني أستشيط غضبًا.

أشيحُ بعينيَّ عنها بامتعاض، ولا أقول شيئًا.

- سوف أذهبُ إلى المقصف، هل تريد أن أجلبَ لك شايًا، أو شيئًا لتأكله؟

- سأنام، أحْضري لي قنّينة جعَّة إذًا.

- ألا تفضِّل الشاي؟ لن تشربَ الجعة في هذا الوقت، أليس كذلك؟ لقد قال الطبيب..

- لا تزعجيني بسبب قنّينة جعة، اللعنة، سوف أنام.
- آسفة يا حبيبي، لكنَّك لست مجبرًا على..
- ابتعدي عني! (صرخت بغضب).

ثمَّ أضفتُ بصوت أقلَّ حدَّة:

- سأذهب بنفسي.

أربَكها هذا العنفُ غيرُ المتوقع، وارتسمتْ على وجه والدتي علاماتُ الخيبة:

- كلّا، سأذهبُ أنا. خذْ قسطًا من الراحة، لا حاجةَ لأن تكلّمني بهذه الطريقة، لا بدَّ وأنك متعَب، إنَّك تحتاج إلى النوم، أنتَ لا تنام أبدًا؛ لهذا أنت سريعُ الانفعال، البروفيسور هو مَن قال ذلك!

نطقتُ كلمة بروفيسور بتلك النَّغمة المميزة جدًّا، التي تعوَّدت أن تقولها بها. مزيجٌ من الاحترام والرَّهبة. إنَّ خنوعَها للألقاب والأوسمة يُعيدني إلى حالةِ الهبوط النفسي الخاصَّة بي، وإلى اللَّقب الوحيد الذي سأحظى به إلى الأبد، وهو لقبُ المريض.

أعلنَ الممثل -الذي يعمل لدى شركةِ النَّقل ليقوم بالتَّرفيه عن المسافرين- بطريقةٍ هزلية أنَّ عرضه سوفَ يبدأ قريبًا في القاطرة التي نركبها. أقفُ فجأة متجنّبًا أن أشاهد ذلك.

أفتّش في جيوبي، وهو ما يمنح انطباعًا أنَّني مشغولٌ رغمَ معرفتي أنها فارغة، وأذهب مباشرة إلى مكان والدتي، حيث تركت جميعَ متعلقاتنا. أبدأ في تفتيشِ مَحفظتها بسرعة، كما أفعلُ دائمًا، الفتاة ذات الوجْه المنمش أصبحت تنظرُ لي الآن.

آخذُ ورقةً نقدية من فئةِ العشرين يورو، ثمَّ أملأ كفّي بمجموعةٍ من القطَع النقدية، وأتَّجه إلى القاطرة المخصَّصة للمطعم، خافضًا عينيَّ حتى لا تلتقيان بعيني الفتاة.

أعبرُ قاطراتٍ مليئةً بالضجيج، مُتجاوزًا شاشات حيث يلعبُ الأطفال الذين لا بدَّ أنهم يمشون أثناءَ النَّوم ألعابًا انفرادية، وعيونُهم مُحاصرة في فخِّ ضوء أجهزة الكمبيوتر.

أصلُ إلى المطعم، الأرضيةُ متَّسخة ودبقة، أقفُ في آخر الطابور لوقتٍ طويل، كلُّ القطارات تكون مُزدحمةً في فصل الصيف، والجميع يرغبُ في الأكل في الوقتِ نفسه، النادلُ يلعب بالكلمات بطريقة لا تُضحِك سواه، ويطلق نكاتِه أسرعَ ممّا يقوم بتقديم طلباتنا، أتشاركُ مع بعض الزبائن شعورَ الانزعاج، وأشعرُ بنوعٍ من الارتياح بدأ يوجَد بيننا.

عندما جاءَ دوري في تقديم طَلَبي لمحتُ أمّي قادمة، كانت تتسلَّل وتتجاوزُ الزبائنَ الآخرين بنوع من الاسْتحقاق لتصل إليّ.

وقفتْ قُربي وطلبتْ منّي أن أطلبَ لها سندويش دجاج.

- أعتقدُ أنكِ كنتِ نباتية؟

- أنا كذلك فعلًا يا حبيبي، آكلُ القليلَ من الدجاج من وقتٍ لآخر، ولكنْ من المستحيل أن آكلَ اللحومَ الحمراء، تعرفُ ذلك.

أهزُّ كتفيّ.

يستمرُّ النادلُ في تَفاهاته، وعندما يلْمحني بصحبةِ أمي، أشعرُ بمسحةٍ من السخرية ترتسمُ على ملامحِه.

كان الجوُّ حارًّا جدًّا، شعرتُ أنَّ حذائي التصقَ بالأرضية. كانتْ أمي تنظرُ لي مُبتسمة، ولكنها كانتِ ابتسامة متخوفة.

كانتْ تفركُ يديها بطريقةٍ تريد بها أن تشعرَني أنها سعيدة ومستمتعة.

- أريد وجبةَ الاثني عشَر يورو، التي تحتوي على الدَّجاج المقلي، تبدو شهيةً جدًّا! سأموت من الجوع يا عزيزي، ماذا عنك؟ ألستَ جائعًا؟ ماذا ستأكل؟ ألن تأكلَ شيئًا على الإطلاق؟
- أنا بخير، ولكنْ بالنسبة لكِ فأظنُّ أنه عليكَ مراقبة وزنك، لقد سمنتِ كثيرًا.. لا يهمني! أقول هذا مِن أجلك فقط!

ابتسمتْ لي مجدَّدًا، وبدتْ مترددةً للَحظة، ضغطتْ على أصابعها، ثمَّ قالت:

- لا يسعُني فعل شيء، آكلُ كميات قليلةً جدًّا، ولكن في سنٍّ معين، كما تعلم، تحدث مع المرأة بعضُ الاضطرابات الهرمونية.
- آه حقًّا؟ لم نرَ مُطلقًا سمنةً تخرج من أوشفيتز، أليس كذلك؟ إنك تشبهينَ حبَّة البطاطا لأن عليك الاستيقاظَ كلَّ ليلة للأكل بنهَم، لا تبحثي عن أعذار! (قلت بلؤم).

كان عليَّ أن أخفضَ من صوتي قليلًا لأنّي لاحظتُ أنَّ استلطافَ المحيطين بي قد تحوَّل بالفعل إلى كراهية. طلبتُ كأسًا من النَّبيذ الأبيض وقنّينتيْ جعَّة، رغم عدمَ رغبتي في شيء، دواء الباكلوفين[1] الذي أشربُه يجعلُني شخصًا سيّئ المزاج وغيرَ مريح، بمجرَّد أن أشربَ الكحول، لكنني أفعل ذلك لكي أجعلَها تعيسةً بكلِّ بساطة.

عوضَ أن تؤنّبني، أخفضتْ عينيْها بحيث لا أستطيع رؤيةَ الحزن داخلهما، لا بدَّ وأنها تتساءل عمّا سأصبحُ عليه، عندما لن تكونَ هنا أبدًا، أنا أيضًا أتساءل حولَ الأمر ذاته.

(1) باكلوفين: عقارٌ مرخ للعَضلات، يُستخدَم لتقليل تقلُّصات العضلات، كما يوصَف في علاج إدمان الكحولَ.

أتبعها إلى قاطرتنا.

تجلسُ والدتي وتبدأ في تفريغ طبقها. كانت خرقاءَ للغاية وتسكبُ الأكلَ في كلِّ مكان مع كلِّ حركةٍ تتم، على الرَّغم من أنها ليست هكذا عادة تضع غلافًا على فخذيْها، طبقًا على الطاولة، وخلال ثوانٍ استطاعت توسيخَ مكانين. كانت تأكلُ متأمِّلة المنظرَ الطبيعي خارجَ النافذة بهدوء وإلهام، بينما فتاتُ الأكل ينتشر حولَ فمِها بطريقةٍ غامضة. بدَا أنَّ الخطوط التي حولَ شفتيها مصنوعةٌ من مادة لاصقةٍ تحافظ على الأوساخ.

أشيرُ إليها واضعًا أصبعي على فمي بطريقةٍ مُتعالية، لكنَّها تنظر إليّ بعينيْن متَّسعتين تشيران إلى عدم الفهْم، ثمَّ بما يشبِه الاستجداء.

- نظِّفي نفسَكِ، لقد وسَّخت كلَّ شيء، لا أفهم حقًّا كيف تفعلين ذلك!

نظَّفت نفسَها بانزعاج، وواصلتْ مضغَ قطعة الدجاج المبطن دون إحداثِ ضجيج.

كانتِ الفتاة غيرُ القبيحة ولا الجميلة ترمُقني بنظرةٍ نصفِ نائمة، لم أرَ فيها أيَّ علامة تشجيع، حتى أنَّه بدَا لي أنه لم يكنْ لديها أيُّ دافعٍ لتشجِّعني على أي شيء أيًّا كان.

استغرقتْ مجدَّدًا في قراءة جريدتها، وهي تتهجَّى الكلماتِ بصوت خفيض كما يفعل الأطفال.

العلبةُ التي كانت تضعُها بجانبها لا تُصدر أيَّ صوتٍ منذ بدْء الرحلة، إنها جرَّة جنائزية بكل تأكيد.

أغلقُ عينيَّ من جديدٍ آملًا النوم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في محطةِ مدينة أنتيبس، أتوقَّف لبعض الوقت في محطة وقودٍ لشراء الماء. أنظرُ إلى أغلفة الصحف، وجوهٌ جديدة لا أعرفها حلَّت محلَّ وجوهٍ قديمةٍ نسيَها الجميع، لا أحد يتأسَّف عليها، أمّا العناوين فلا تتغيَّر.

استأجرتْ والدتي سيارةً وجدْناها في انتظارنا. حرارةُ الطَّقس لا تطاق، كانت تتعرَّق طوالَ الوقت، ظهرُها العريض والمبلَّل يُصدر صوتًا أشبهَ بصوت الشَّفاط عندما تتحرَّك عن المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، وتقتربُ من السائق للإشارة إلى العنوان.

وجهُها يقطرُ عرقًا، جبينُها وحواجبها، تفسَّخ مكياجُها بسبب العرق، أصبح وجهُها أشبه بكتلة طينيَّة حاليًا. كان وجهي يتعرَّق أيضًا، ثمَّة أيام كانت عيناي تتعرَّقان إلى الحدِّ الذي يجعل البعضَ يعتقدون أني أبكي.

كان السائقُ من مرسيليا، وجهُه داكن، وقد طرحَ علينا جميعَ الأسئلة الممكنة، وكان يدلي بملاحظات عنصريةٍ حولَ السّود والعرب، بينما كنّا أنا ووالدتي صامتيْن تمامًا. بدتْ بشرتُه في مرآة السيارة داكنةً إلى حدٍّ جزمتُ معه أنه أسودُ وعربيٌّ معًا.

كانت أمي تضع حقيبةَ يدِها فوق ركبتيها، وتبدو ضئيلةً جدًّا، وتتحدَّث معي بلهجة مُستعارة، ما تتخيَّل أن تكون لهجةً فرنسية قديمة، فقد كانت تحاولُ قدرَ المستطاع إخفاءَ أصولها عن السائق، كما تعلَّمت أن تفعلَ منذ الطفولة، راحت تتحدَّث عن كلِّ شيء.. ولا شيء، في محاولة لملء الصمتِ خشيةَ أن ينتهي الأمرُ بالسائق بمهاجمة شعبها.

لا أستمعُ إليها، أستغرقُ في مشاهدة المناظر الطبيعية.

قادتْ بنا سيارة الأجرة لمدَّة نصف ساعة على الساحل المشوّه، تقاطعات الطرق، ملصقات الوجبات الخفيفة من جميع الأنواع، الإعلانات المثيرة للاشمئزاز، الجدران المعلمة بالكنيات، الأسماء الأولى، البَذاءات المعتادة،

مِن أين تأتي هذه الحاجةُ إلى تخريب كلِّ شيء، وتوسيخِ كلِّ شيء؟ يبدو أنه «شغفُ الشباب»، أعلام مُلقاة على جانب الطريق من قِبَل المضاربين الوقحين، الرصيف التالف بسببِ الحرارة والملل، الازدحام في كلِّ مكان، السباحون يتراكمون فوقَ بعضهم البعض على الشواطئ لتمييزِ أماكنهم الصَّغيرة التي تبلغ مساحتها خمسين سنتيمترًا مربعًا تحرقها الشمس.

علقْنا في الاختناقاتِ المرورية على طول الساحل، أمّا على رصيف الكورنيش، فقد كانت اليخوتُ تبدو مثلَ المباني، قبيحةً، سيئةَ التصميم، محمَّلة بشكل زائد، تذبلُ في الشمس.

أخيرًا، بلغنا المرتفعات، واصلتْ أمي التحدثَ معي.

- انظرْ يا عزيزي، كمْ هذا جميل! أتخيَّل أنَّ العيش هنا أمرٌ في غاية الهدوء.

اكتفيتُ بالتنهُّد فقط، لكن كنتُ أعلم في داخلي أني أفضِّل هدوءَ القبر.

تقودُنا موظفةُ النُّزل عبرَ الممرات وأنا مستاءٌ للغاية بمجرَّد أن علمتُ أننا في نفس الغرفة، ليس غرفة بل جناح، سننامُ في غرفتين مُنفصلتين، لكني سأكون مضطرًّا لمشاركة أمي المرحاضَ وغرفة الاستحمام، وهو ما بدَا لي أمرًا حميميًّا بطريقة مقيتة.

ورقُ حائط رهيب يغطّي الجدارَ الذي يواجِه سريري، نوعٌ من التشابك الساذج للطيور والطاووس بألوانٍ خضراءَ ضاغطة، أركزُ نظري عليها، وأجزمُ أنَّ شيئًا ما يتحرَّك بالداخل، وأن هنالك حياةً حقيقية تحدث هناك.

أنزلُ مجدَّدًا إلى الاستقبال، لم يكنْ أكثر من نافذةٍ خشبية صغيرة بقضبانٍ داكنة اللون وسميكة، قفص مُظلم لا أجدُ فيه أحدًا، أحك رقبتي وأتساءل هل أنادي على أحد؟

أقبلتِ امرأةٌ إنجليزية صغيرةُ الحجم، تمشي ببطء. أرجوها أن تجدَ لي غرفة أخرى، لا بدَّ وأن خطأ قد حدَث، لا يمكن أن أشاركَ والدتي نفسَ الغرفة، لكنَّها تشرح لي أنَّ الفندق مليء منذ شهور وحتى موعد الإغلاق السنوي الذي يكون في شهْر أكتوبر، لو قرَّرت الذهابَ الآن فسوف يضعونني على قائمةِ الانتظار، وسوف يتمُّ إعلامي مع أول شغور.

أدخلُ إلى الجناح من جديد، ثمَّ أجلسُ على سريري وأراقبُ والدتي وهي تفرغ أغراضها من الحقيبة وتطْويها بطريقةٍ عشوائية لتضعَها فيما بعدُ داخلَ الخزانة، كيف يمكنُ لامرأة في هذه السن ألا تعرف كيفَ تطوي قميصًا بشكلٍ صحيح؟ كلُّ قطعة ملابس كانت تنتهي موضوعةً بشكلٍ عشوائي على أحدِ الرفوف، بعدَ حركة ميكانيكية من يدها، عطستْ ووضعتْ بجانب سريرها قارورةَ أكسجين صغيرة مؤصولة بقناع وآلة؛ حيث تحتاجها لتنام.

- لماذا ترمقني هكذا؟
- لن يُحدث هذا الشيءُ ضجيجًا على الأقلّ، أليس كذلك؟ أنا أنذرك بأنَّ نومي خفيفٌ جدًّا، في حالِ تمكَّنت من النوم بالطبع.
- نعم، أعرف يا عزيزي.

أذهبُ إلى غرفة الاستحمام، وأغلقُ على نفسي بالمفتاح، أفتحُ صنبور المياه حتى لا تسمع شيئًا وأستغرقُ طويلًا في النظر إلى لحيتي في المرآة.

أتأمَّل وجهي، العبوسُ السخيف، ذقنٌ متقدِّمة إلى الأمام، فمٌ مشدود، أفترض أني أحتاج إلى مُعجزة لأصبحَ أجمل. أنتبهُ إلى لحيتي، أستطيع أن أتأمَّلها طويلًا، أطول بكثيرٍ مما يتأمَّل الواحدُ حريقًا أو عاصفة بحرية، وكلُّ المشاهد المتطابقة بشكلٍ سحري ومتغيّر.

قضيتُ وقتًا طويلًا في النَّظر إلى نفسي، ليس من بابِ الإعجاب! لم أشعرْ بأيِّ رضًى عما أراه، لكنَّني استخلصتُ بمشاعر باردةٍ وجوهَ التَّشابه بين أمي وبيني، والتي كانت ظاهرة في كلِّ مكان، وتستمرُّ في الظهور كلَّما تقدَّمتُ في السن أكثرَ فأكثر، لحيتي هي الشيءُ الوحيد الذي يربطني بوالدي وبوسامتِه، كما لو أنَّه لم يستثمرْ حقًّا في صناعتي، وأنه قامَ بهذا العمل بشكل مُرتجل، مستعجل، غير مُتقَن.

أخرجُ من غرفة الاستحمام. كانت أمي قد ذهبتْ في النوم بالفعل، جهازُ التنفس الخاص بها يقف بجانبِ سريرها مثلَ طاقم أسنان بلا صاحب، هل يمكنُ لهذا الجهاز أن يزيل الضغطَ أيضًا؟

أنظرُ عبرَ النافذة، ثمَّ أخرج إلى الشُّرفة الصغيرةِ ذات القضبان الحديدية، بقدمين حافيتين.

خلف المسبح تقف صخور غامقة اللون وزلقة، تجعلني أفكر في أجساد متشابكة تنزل إلى البحر، وثمة سلَّم صدىء تشقه الشمس، يبدو وكأن سفينة حربية تركته هناك، بعيدًا في البحر الأزرق الداكن.

أنظرُ لوهلةٍ إلى زبائن الفندق، متجمِّعين حول المسبح، تحتَ نوافذي مباشرة، أستمع إليهم وهُم يتحدثون.

عائلةٌ إنجليزية، جميعُهم كانوا على قدرٍ من الأناقة؛ الأب، الأم والابن، طوال القامة، نحيفون، مع مسحةٍ من غطرسةِ مالكي الأرض، لكنَّ الفتاة ورثتْ من أسلافها الريفيّين مظهرًا كريهًا إلى حدٍّ ما، كان هنالك أيضًا أخوان آسيويّان، يتعاركان داخلَ الماء، بدَا الكبيرُ مدفوعًا بكراهية كبيرة، إلى حدٍّ جعله يحاول باكيًا إغراقَ أخيه الصغير، دون أن يستطيعَ ذلك فعلًا، بينما أمُّهما تصرخ بهما على حافَّة المسبح.

لو كان عندي أخ، لرغبَ هو أيضًا في إغراقي ذات يوم.

أخيرًا، هناك امرأةٌ أمريكية تطفو في المسبح وعيناها مُغمضتان، بدينةٌ ومبتسمة، تلعب لعبةَ الغمّيضة معَ فتاة صغيرة، الطفلة أيضًا في طريقِها إلى السِّمنة، بينما أمُّها تكررُ دون توقف:

- ماركو؟ (بلكنة تكساس).

والفتاةُ الصغيرة تجيب:

- بولو! (باللّكنة نفسها، حتى يمكنها تحديد مكانها).

- ماركو؟

- بولو!

أغلقُ النافذة وأتمدَّد على السرير.

أغلقُ عينيَّ لأجعل العالم يختفي.

نزلتُ إلى المسبح عندما انخفضتْ حرارةُ الطقس قليلًا. تردَّدت في نزع ملابسي، لكنّي في النهاية أبقيتُ قميصي القطنيَّ لأنَّني شعرت بأنني ممتلئ وباهت.

وضعتُ هاتفي على حشيةٍ بلاستيكية موضوعة في الجهة المقابلة لزبائن الفندقِ الآخرين. أخلع قميصي، وأقفزُ بسرعة في الماء حتى لا يرى أحدٌ انتفاخاتي، التلامسُ مع المياه المنعشة والمعقمة جعلني مبتهجًا على الفور، أنزلُ برأسي تحتَ السطح، لا صور، لا أصوات؛ وحيدًا في بلاطة خرسانية مغطَّاة بالفسيفساء، مغسولًا من كلِّ هذا الحزن.

لا أتحرَّك، ألمسُ القاع، تكفي حركةٌ بالساقين واليدين حتى أعودَ إلى السطح.. حتى أتنفس، أتخبَّط لتفادي الموت.

أخرجُ سريعًا من الماء، وألفُّ نفسي في منشفةٍ أصبحتْ ساخنة من أثر الشمس، مثل ثعبان فوقَ حجر.

زبائنُ جُدد للفندق عوَّضوا رحيل القدامى. على حافَّة المسبح، كان يوجد شبّان ضخام، ذوو عضلاتٍ مُكتنزة، عيونُهم صغيرة كعيونِ الذئاب، مراهقون جميلون يقومون بقفزاتٍ خطيرة في الماء تقطعها نوباتُ ضحكٍ عارمة. هنالك عائلة أيضًا، الرجلُ عجوز، أنفُه الكبير يشبه حبةَ البطاطا، تدور حولها عينان صغيرتان وفم، باقي وجهِه عبارة عن صحراء من اللَّحم الزيتوني، كانت مجملُ ملامحه تمنح إحساسًا غامضًا بالفُحش، كما لو كنتُ تنظر إلى مؤخرة.

يصعب التكهن إن كانت زوجته أو ابنته، جميلة، بشرتُها سمراء، رقيقة، أصغرُ منه بكثير. ثمة طفلٌ صغير بقربِهما، وقد ورثَ أنفَ والده الكبير، وكان يشبه والدتَه في كلِّ البقية، معهما مربيَّةٌ أيضًا؛ فتاةٌ شابة ترافقُهما، عشرينيَّة كما يبدو، أصابعُها رقيقة كما لو أنَّها من زجاج، جبينُها عريض ومقبب، بالكاد تعدَّت سنَّ المراهقة، أتأملُ ساقيها النَّحيفتين الأشبه بسيقان جرادة، ردفيْها الصَّغيرين كردْفي راقصة، ثدييْها الضَّئيلين كما لو أنهما لشابٍّ صغير، من خَلف نظارتي السوداء، مفكِّرًا في كلِّ الوضعيات، وكلِّ الطرق الممكنة للحصول على جَمالها، قادتني إلى التَّفكير في إحدى عارضات إيغون شييل؛ امرأة طفوليَّة تُعاني من سوء التغذية، مخدوشة، هزيلة الجمال، شابَّة جدًّا، وطاعنة في السن في الآن ذاته، أتخيَّلها تقدِّم نفسَها في مشْغلي للعمل، لو أنني فقط كنت رسامًا، لو كنت أجيدُ الرسمَ لقمتُ برسمها حتَّى يصيبني العمى. كان بإمكاني أن أكونَ مصوِّرًا فوتوغرافيًّا على الأقل، بإمكان الجميع أن يصبحوا مصوّرين فوتوغرافيين.

في غضونِ بضع سنوات، ستنهارُ المربيةُ الشابة بالتأكيد، وتصبح ربةَ منزلٍ مُتعجرفة تكافح من أجل تغطيةِ نفقاتها بين وظيفتها وأطفالها.

ألمحُ والدتي قادمةً من بعيد، تنزل الدرجاتِ في ثوبِ سباحتها البَنفسجي الرهيب، الأشبه بجلد مخلوقٍ فَضائي مسْلوخ. وجهُها أصبح مائلًا إلى السواد بأثرِ الشمس، والجينات الغامقة لأسلافها، بطنُها مُنتفخ بشكلٍ كبير، هذا الانتفاخُ الذي شكَّل الدليلَ الدائم في جسدها على حملها لي، كيف استطعتُ أن أقضي تسعةَ أشهر داخل هذا البطن؟ أيّ رفاهية! أي انغلاق!

تصلُني من داخل المسبَح أصواتُ الشبّان ذوي العيون الضيقة كأعين الذئب، ساخرين:

- احترس، انظرْ إلى هذه، كما لو أنَّها حامل!

- لن نتوقَّف عن التقدم، لقد بلغنا الثمانين الآن!

أسمعُ سُخرياتهم، وتعتريني رغبةٌ في الانقضاض عليهم، واقتلاعِ وجوههم بأظافري.

ما إنْ رأتني أمي حتَّى أشارت لي بيدها إشارة متردِّدة وخَجلة، كما لو كانتْ تخشى أنَّ إشارة واثقة سوف تجعلني أختفي. كان ثمة شيء في نظرتها يشبِه العثورَ على الأمل، مثلَ أولئك الأطفال الذين يُتركونَ لوقتٍ طويل في الحضانات، ثمَّ يلمحونَ آبائهم يظهرونَ من جديد. جلستْ أمامي تمامًا، بمسْحتها المبالِغة في الهدوء والرِّضا واللا مبالاة، حاجبةً عن ناظريَّ المربيةَ الصغيرة الجميلة التي كانت آنذاكَ تغتسل داخلَ المسبح.

نظرتْ إليَّ نظرةُ مُشعَّة، وقرأتُ في نظرتها مدَى السعادة التي تعتريها لأنها معي.

لنْ أفهم طيلةَ حياتي، لماذا تشعرُ بالفخر لفكرةِ لقائي بينَ الناس، كما لو أنَّ مجرَّد ولادتها لإنسان، مهْما كان مزيفًا، وليس حيوانًا؛ كان بالفعل إنجازًا.

- المكانُ جميل هنا، أليس كذلك؟ أنا سعيدة جدًّا أني معك، لقد اشتقتُ لك، هل اشتقت لي؟

نظرتْ إلى شجرةٍ صغيرة، متقلِّصةٍ توقَّفتْ عن النمو، بإعجابٍ كبير، كما لو أنَّها رأت نبيًّا يمشي فوق الماء.

- هل ترى جمالَ هذه الشجرة؟ ماذا تقرأ؟

- لا شيء.

استدارتْ، وعلى الرَّغم من بذل قصارى جهدِها بدَا شَعرُها المصبوغ باللون الأسود أصلعَ في الجزء العُلوي من الجمجمة. وجدتُّ أنها شاخت، وشعرتُ فجأةً بأسى عظيم نحوها بسبب بطنِها الكبير، بسببِ صَلعها، وبسبب كلِّ الألم الذي سبَّبته لها. شعرتُ برغبة في النَّشيج عليَّ.. وعليها، لن يحبني أحدٌ في الكون أكثرَ من هذه المرأة التي أشبهُها كثيرًا، على الرغم من أنني لا أريد ذلك.

خرجتِ المربيةُ الصغيرة من الماء، ورحت أرفعُ جذعي قليلًا لأرى أثرَ الماء على المايوه الذي كانت ترتديه، انحنتْ فألمحُ مثلَ سرٍّ صغير.. الكثبان الرملية الصغيرة من ثدْيَيها مضغوطة تحتَ القماش البيج لحمّالة صدْرها، يمكنني أن أشعرَ تقريبًا بمكان التعرُّق، الرائحة النفاذة للجلد واللعاب، والرائحة التي كانت ستنشرُها على الملاءات المجعَّدة بعدَ ليلة حبٍّ مُحبطة للآمال بلا شك.

أظنُّ أنها تنظر إليَّ أيضًا. أديرُ رأسي، وأبتعدُ عن أمي، أتظاهرُ بأنني أتحدَّث على الهاتف حتى لا تستطيع تصوُّر أنها معي.

أعودُ إلى غرفتي، وأضعُ عشائي أمامي مقابلًا للسرير. بدَا لي مجدَّدًا أن ورق الحائط يتحرك، أمنحُه ظهْري، تاركًا والدتي تأكل وحيدةً في مطعم الفندق.

أتصفَّح الجريدة قبلَ النوم، سمحَ البلجيكيون بالقتل الرحيم للقصَّر، وهُرعَت مراهقةٌ على الفور إلى هذه الثَّغرة وتمَّ قتلها رحيمًا لأنَّها كانت تعاني، كما تقول المقالة، من التعبِ المزمن والشديد، أتساءل بينما أحاولُ النومَ: لو أنَّ هذا لم يصبح مفهومي للحياة؛ تعبٌ مزمن وشديد، على الرغم من أن كلَّ شيء كان يبدو لي خفيفًا في طفولتي، ومجرَّد احتمال زيارة متنزَّهٍ ترفيهي يمكن أن يجعلني سعيدًا لمدة أسبوع كامل. أين ذهبت إذًا كلُّ تلك السعادة؟ لقد تمنَّيت لوهلةٍ أن أكون مكانَ هذه الشابة البلجيكية وقد بدتْ لي هذه الغرفةُ مثالية لمحاولة انتحارٍ جديدة، أفتحُ المياه وأقطع شرايين معصميّ مرَّة أخرى، أو أن أبتلعَ علبة دواء، غير أنها أشياء غيرُ مؤكَّدة، ويمكن أن تفشلَ كأيِّ شيء آخر، وحتى لو نجحت فلا بدَّ أن الأمرَ سيكون في غايةِ الازعاج للجميع، عمّال استقبال سيتَّصلون برجال النجدة، رجال الشُّرطة والأطباء، ستُلتقط الصورُ للجثة بعدَ تجريدها من الملابس، تنظيف القذارة، فرز الملابس، إكمال الأعمالِ الورقية، رأيُ القاضي، هل يتوجَّب القيام بتشريح أم لا، شهادة كذا..، تصريح بكذا..

كلّا بشكلٍ قطعيّ، فكلُّ هذا مبالَغ في الإزعاج والفوضى، أن أكون مركزَ اهتمام غير مرغوب لمجموعة من الموظفين، الذين سيروْن جَسدي مسجًّى وباردًا وبلا حياة، قد يثير هذا ضحكَهم حتى، وقد يبْدون تعليقاتٍ ساخرةً حول بعض الصفات الجسدية التي سيعتبرونها بشعة.

ثمَّ أخيرًا، حزنُ أمي، وسطَ كلِّ هذا، شعثاء، مهزومة، غير متماسكة، عزلاء.

لنْ يخدمني حزنها إلّا بتوفير كفنٍ لي، والخجل مِن أنَّ أحدًا لم يحزن عليَّ سواها.

لا.. شكرًا، من الأفضل الاختفاءُ، العودةُ إلى البحر، التلاشي.

فنُّ الاختفاء، هذا هو الشكلُ الفنيُّ الأسمى.

أنامُ على هذه الأفكار المطمئنة.

في الغد، انطلقنا إلى نيس، أريد تناولَ الفطور في فندق «الشاطئ الجميل» على خطى سكوت فيتزجيرالد، أمّا أمي فترغبُ بزيارة «ماريلاند» لتشاهدَ ترويضَ الحيتان القاتلة[1]، مفكرةً بلا شك في إسعادي.

سارتْ سيارةُ الأجرة بسرعةٍ مُنخفضة، مقتربة رويدًا من موقف السيارات.

- سيكون ذلك رائعًا، لطالما عشقتَ منتزهاتِ الترفيه عندما كنت طفلًا، وأحببت الحيتان، كنتَ تقول إنَّها مخلوقاتٌ انتقامية، هل تتذكَّر هذا؟ انتقامية، أمرٌ طريف.. أليسَ كذلك؟ هل تذكر؟ أنا سعيدةٌ أني معك.

وضغطتْ على ذراعي بأصابعها الصغيرة الممتلئة.

لقدْ أخبرتني هذه الحكاية الطفولية ثلاثمائةَ مرَّة، وأتساءل عمّا إذا كانتْ تكرِّرها عمدًا مرة أخرى للانتقام مِن الإساءةِ التي سبَّبتها لها بدخول العالم، أم أنَّ ذلك يعود إلى أنها تزداد في الشيخوخة كلَّ يومٍ أكثر؟

---

(1) الأوركا أو الحوت القاتل: هو واحدٌ من أكثرِ الحيتان شيوعًا، وواحدٌ من اثنتين تجذبُ الانتباه أكثرَ في أفراد عائلة دولفين البحر. وهو أكبرُ جنس في هذه العائلة، يتميَّز باللَّونين الأبيض والأسود على البطن، وكذلك العينين، وهو ما جعلَ الأوركا حيوانًا لا يمكن الخلطُ بينه وبين آخر.

تجاوزنا حاجزَ أمان كان يُفضي إلى موقف سياراتٍ هائل، أكبر من مدينة، كانت توجد آلافُ السيارات المتطابقة الشَّكل والهيكل، وبأسماء ماركات سخيفة؛ آفانتي، ياريس، بريوس، ندفع للناس ثروةً لخلق مُصطلحات جديدة غبية تبدو لاتينية.

توقَّفتْ بنا سيارة الأجرة أمامَ المدخل. يبدأ الأمر بمتجر حيث تُباع جميعُ أنواع البضائع، ونحن مجبرون على المرور بها عندَ الدخول وعندَ الخروج؛ للتأكُّد من أنَّ الأطفال صعبي المراس سيجبرون آباءهم على ابتياع عوّامة سمك القرش أو دمية خروف البحر الناعمة.

بدأنا جولتَنا، كانتِ الفقمات تصدر أصواتًا كالشَّخير في بركة صفراء، يركض الأطفال مثل المجانين أمامَ فقمات الأفيال المختبئة في كهف، طيورُ البطريق تلسعُها شمسُ المتوسط الحارقة، يعلّق طفل:

- تبدو البطاريقُ حزينة، أليس كذلك؟ يشعرون بالحرّ.

لكنَّ الجميع قدِموا لرؤية الأوركا؛ الحيوان الأشدّ قوةً في المحيط، المفترس بلا منازع، يبدأ العرضُ خلالَ ربع ساعة، لذلك اتجهنا إلى الحوض رقم 1.

أمامَ الحوض كانت هناك لافتاتٌ كرتونية كبيرة، تدلُّ الزائرين على طريقةِ الحياة الاجتماعية لحوت الأوركا. يمكننا أنْ نقرأ هناك «أنَّ أكثرَ ما يميز هذا النوع غرابةً هو العلاقةُ الوثيقة التي تربط الذكور بأمَّهاتهم، عندما تموت الأمُّ فإنَّ خطرَ موت الأوركا حتى لو كان بالغًا، ترتفع إلى ثمانية أضعاف». هكذا كُتب.

تساءلتُ للحظة، كيف تمكنَ العلماءُ من الوصول إلى هذا الرقم؟ وأيُّ نوعٍ من المضاعفات سيطبقونها على فرصي في البقاءِ على قيد الحياة إذاً ماتتْ أمي؟ مصائرنا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحزن الحياة الغَامض، مثل الحيتان القاتلة، غير قادر على مغادرةِ عشيرتي الجينية على الرغم من حجمي الهائل.

«تمَّ العثورُ على الحليب في معدةِ العيّنات البالغة من العمر ثلاثة عشَر عامًا»، كتبوا كذلك، لا أعرف إلى أيِّ سنٍّ أرضعتني أمي من ثدْيها، لكنَّني لطالما راودني ذلك الحلمُ ببالون أبيض، كتلة شاحبة ومتأرجِحة تقتربُ من وجهي ببطء، وبلا هوادة، حتى تقطعَ النفسَ عنّي، حتى أدخل إلى صمتِ الاختناق وسط كلِّ ذلك البياض.

دخلنا إلى الحوض، وهو عبارة عن مدرجٍ مركَّب على سقالة، تحته مسبحٌ ضخم أزرقُ اللون متصلٌ بالممرات التي سيتمُّ إحضارُ وحوش البحر منها.

كانتِ المدرجات مليئةً بالبشر، وبخمسة مُنشطين تعسين، لا بدَّ وأنهم يتقاضون أجورًا متدنّية، يرقصونَ على موسيقى البوب الأمريكية، يلبسون أزياء على هيئةِ فئران عملاقة، أو صغار فيلة، وذلك حتَّى لا يرى الجمهور مدَى الرعب على وجوههم.

الجمهورُ أيضًا كان يرقص على طريقتِه، ويُصدر الهتافاتِ لدفع الوحوش البحرية إلى الظهور، كانوا يصفّقون أيضًا في مصاحبةٍ للموسيقى المنبعثة.

فوقنا، الطائراتُ تعبر السماءَ مثلَ صواريخ في حركةٍ بطيئة، خلف الأحواض يوجد الطريق الساحلي المكتظّ، وبعدَه مباشرةً البحر؛ البحرُ

الأبيض المتوسط الأزرق الداكن، والعبَّارات المغادرة إلى المغرب العَربي، بعيدًا بعضَ الشيء، توجد إفريقيا؛ حيث الصحراء، البدو، وسيارات الجيب.

أغلقُ عينيَّ لأتجنَّب رؤية أمي وهي ترقص وسطَ الجموع، مفكِّرًا أنَّ هذا الحشد المبتهج وذا الطبيعة الطيبة يمكن أن يكونَ حشدًا غوغائيًّا شديدَ العنف في حقبة أخرى.

عندما أتتْ حيتانُ الأوركا، عمَّ صمتٌ رهيب، الخضوعُ الأبدي أمام القوة، نرى شكليْن مستطيلين ضخمين، ظلّيْن ينتقلانِ من الأحواض الداخلية إلى المسبح الرئيسي، يعبران قفلًا صغيرًا ويبدآن في السِّباحة ببطء في المسبح الكبير. عندما وصل المدربون، حصلتْ لحظةُ انقطاع، بدَا أنَّ الموسيقى تتناقَص لاستئنافها بشكلٍ أفضل، ثمَّ بدأ المدرِّبون في القيام بإيماءاتٍ صغيرة، كما لو كانوا يريدون تدريبَ كلبٍ منزلي صغير على تذوُّق وجبةٍ خفيفة في عيد ميلاد.

يمكن للوحوش أن يسحقوا، ويمزِّقوا، ويقطعوا رؤوسَ المدربين بضربةٍ ظهرية واحدة، لكنهم بدأوا في القفزِ من الماء عندما يطلبُ منهم المدرِّبون ذلك، ويلعبون حتَّى بكُرَة بلاستيكية حمراء كبيرة.

بدَا لي هذا علامةً على نهاية الزمان؛ أنَّ الحيوانات المفترسة فائقةَ الذكاء عادتْ إلى البحر منذ ملايين السِّنين هربًا من مخاطر النَّيازك التي تسقطُ من السماء، فانتهى بها الأمرُ إلى السجن في بركة خرسانية صغيرة، مُجبرةً حتَّى الموت على القيام برقصات مصمَّمة.

للإنسان مقدرةٌ على الحطِّ من قدْر كلِّ شيء، بكلِّ تأكيد، يسجن ويهين الدَّلافين أمام البحر، يحوِّل الهنودَ إلى مدْمني كحول، يعرِّض دببةً قطبية لدرجة حرارةٍ تصل إلى أربعين درجة في الظل.

أرى أنَّ والدتي قد أغلقتْ عينيها، إنَّها مُنهكة لدرجةِ أنها تمكنتْ من النوم وسطَ هذا الضجيج الذي يصمُّ الآذان. إنها سيدةٌ عجوز تقريبًا، أمي الصَّغيرة المسكينة التي ستنتظر قريبًا في القبر حتى أنضمَّ إليها، تعْتريني رغبةٌ في أنْ أعانقها مرَّة أخرى وأعتذرَ عن كلِّ شيء منذ البداية، أنْ أخبرها أن الأمرَ لا يعْدو أن يكون مجرَّد سوء فهْم، وأنَّني أحبُّها أيضًا، أنَّ غضبي لم يكن يومًا عليها؛ وإنما على نفسي، أنَّها لم ترشدْني إلى الطريقة الصحيحة للتَّعامل مع الحياة، وأنَّني كنت أضعفَ مِن أنْ أكتشفها بنفسي، عاجزًا عن اكتشاف أيِّ شيء.

ألمسُ كتفها برفق، فتفتحُ عينيها المحمَّلتين بحماسةِ الفتاة الصغيرة القتالية، مبتسمةً تلك الابتسامة الحريرية. أطلبُ منها المغادرةَ لأنَّني جائعٌ، وهذه الموسيقى تؤذي رأسي.

أعبرُ المتجر، رجلٌ سمين جدًّا، أبيضُ ومتعرِّق، تصحبني والدتي العجوز، التي تمنَع نفسَها من أن تقترح عليَّ أن تشتري لي دمية.

سرْنا في الموقف الضخم، لا وجودَ لسيارات أجرة، شعرتُ بشيء من خيبة الأمل.

تحتَ حرارةٍ حارقة، ذهبنا لتناول الغداء في فندقِ «الشاطئ الجميل». كانت الشرفةُ خالية. زوجان طاعنان في السنِّ يبدو عليهما الملل، يجلسان في الشُّرفة الأمامية المظللة، بينما تتنمَّر عائلةٌ قادمة من الدُّول العربية على الموظَّفين. تناولنا غداءنا في صمتٍ وسطَ الشرفة المتصحِّرة، مازلت أفضِّل ضجيجَ الموسيقى على أحاديثنا.

تنظرُ أمي إلى خليج «أنتيبس» بعاطفةٍ لا أعرفها في عينيها، مثلَ حجابٍ صغير من الرهبة خلف عينيها الباهتَتين الجميلتيْن، بينما تضغطُ يدُها برفق على ذراعي:

- ماذا هناك؟ (قلت، منشغلًا بأفكاري).
- لا شيء يا حبيبي، لا شيء.
- بلى، هيّا قولي لي.
- لا شيء. أحبُّ كثيرًا هذا الخليج.
- وماذا إذًا؟
- عندما كنتُ صغيرة، ذهبنا على متْن قاربٍ مع عمي وعمَّتي، وكثيرًا ما رأينا الدلافين، أحبُّ هذا الخليج، وأقول لنفسي الآن إنَّ هذه آخرُ مرَّة سأراه فيها.
- لماذا تقولين هذا؟ أستطيع أيضًا أنْ أقول لنفسي ذاتَ الشيء، يمكن أن أموتَ قبلك، لا أحد يعرفُ المستقبل.
- أنا أعرف مستقبلي. لا أفهم عالمَ هذه الأيام؛ لذلك أنا سعيدةٌ لأني سأغادرُه قريبًا، على الرغم مِن خوفي يا صغيري، أليس هذا غريبًا؟
- لا تقولي مثلَ هذه السخافات. مازال بإمكانك العيشُ لعشرين سنة أخرى.
- ليس عندي أدنى رغبةٍ في ذلك، ولكنْ هذا المكان.. أنتَ تعرف يا صغيري، كلُّ ما في الأمر أن هذا المكان يمنحني شعورًا مختلفًا، وهذا كلُّ شيء.

على الواجهةِ البحرية، عشراتُ الرافعات الثابتة التي تشبِه عمالقةً سقطوا من السماء، ينتظرون الساعةَ المحدَّدة لقيامَتهم ليغمُرونا بالضَّجيج والفوضى، مُشيرين إلينا أنَّ وقتَنا قد حان، وأنَّ عالمنا سيختفي بلا هَوادةٍ أثناءَ عملهم في المستقبل.

وراءَ الرافعات، أرى قواربَ تسير فوقَ عُمق آلاف الأمتار، أشعرُ برغبة في الذهاب بعيدًا، أن أسبحَ لوقتٍ طويل، أختفي في البحرِ دونَ ترك أثر، ولكنْ مَن يدري.. ربَّما إذا منحَنا المستقبلُ الوقت فيُمكننا أن نعودَ أنا وأمي -أيضًا- إلى البحر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

تاتيانا دو روناي 5

مقهى لويندال 7

ديديه دايدينكس 45

عيدُ الزِّفاف الذَّهبي 46

بيار آلان غاس 49

هل قلتُ لكم؟ 50

فريدريك بيغبيديه 55

الوحدةُ للكثيرين 56

إيريك إيمانويل شميت 59

حاملةُ باقةِ الورد 60

آن سير 73

غامضةٌ أكثر، غريبةٌ أكثر 74

تحتَ الكوع 78

غيوم ميسو 81

الشبح 83

كارولين لامارش 109

إيلي 110

رافاييل هاروش 115

العودةُ إلى البحر 116

لم يُخلق الرجال ليكونوا وحيدين

لم يُخلق الرجلُ ليبقى وحيدًا ربما، ولكنه وحيدٌ رغمَ هذا، حتى لو كان متزوِّجًا، يبقى الرجل وحيدًا ومنْبوذًا على سطح كوكبٍ يدور في فضاءٍ فلكي بسرعة 29.79 كلم في الثانية. يولَد الرجل.. يركض.. يُسارع ليعيش.. يقرأ الكتب.. يذهبُ إلى السينما.. يُعاني.. يتناول فطورَ الصباح.. يموت.. أحيانًا، وأثناءَ كلِّ هذا، قد يبْدو له أنَّه لم يُخلَق للعزوبية الأبديَّة، قد يبحثُ إذًا عن الوقوع في الحب، هذا يعني أنْ يكذبَ على امرأةٍ جميلة، وعلى نفسِه بذاتِ القدْر.

دَعونا نراه بعينٍ متفهِّمة وحنونة: يحاول أن يكون محبوبًا، وأنْ يكتسب شعبيةً مثل مرشَّح داخلَ حملة انْتخابية، هل يشكُّ ألّا يقدر على تحقيق ما يَعِدُ به؟ قد يجرِّب إقناعَ نفسه بأنَّه سعيد.. يتزوج.. يتناسل.. يلتقطُ صوَرًا ملوَّنة؛ كمحاولةٍ منه لتخليد كلِّ الأشياء الزائلة. كم تبدو رؤيتُه مؤثرة داخل هذه اللَّقطات، يمسك بين يديْه رضيعًا يلبسُ اللونَ الوردي بكامله، هذا الأخيرُ لا يعرف بعدُ أنه سينتهي وحيدًا هو أيضًا. إحدى يديه تُمسك يدَ زوجته وتضغطُ عليها. هل ليمنعَها من الرحيل أو فقط من أجل طمْأنة نفسه؟

مكتبة
t.me/soramnqraa
470 يوم
غزة

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING